ملحق شهري

العربي الجديد

فلسطين

الأحد **17** مايو / أيار 2015 م 28 رجب 1436 هـ العدد 3 السنة الأولى
Sunday **17**th May 2015

مساءلة

على ضوء نكباتنا العربية: ليست ذكرى
3.2

مراجعة

رؤية نقدية عابرة للأجيال: كي لا تظل النكبة «مستمرة»
5.4

مقاربات

سورية: من مسيرة العودة إلى إحياء النكبتين
7.6

(قرية العراقيب/ النقب الفلسطيني)

الذاكرة ليست حفل تأبين

هيئة تحرير الملحق

ليست وظيفة الفكر إجراء مواكبة لطقوس الذاكرة الجماعية، فهو بذاته ليس طقساً، الفكر كما نفهمه فعلٌ ينقل الذاكرة الجماعية إلى ميدان الفعل، وهو بهذا المعنى عصب الإرادة الجماعية وعصب فكرة التحرر. لقد شاعت في السنوات الأخيرة ممارسات تنميطية لمعنى النكبة الفلسطينية سيّما في الإعلام العربي، سواء بوصفها ماضياً بعيداً علينا أن «نحميه» من النسيان أو بوصفها فجيعة قدرية تتمدّد على الراهن وتسبقنا إلى المستقبل. وضمن هذه الممارسات، يجري تحويل «الذاكرة» إلى مستودع قديم وطقس ندبي موسمي تُفرّغ فيه أفعال الندامة، عوض أن تكون عنصراً مؤسّساً في عملية تكاملية تجمع تحرّر الإنسان وتحرّر الشعوب. وضمن هذه العملية المختلة تتحول الرموز إلى فولكلور. وحين تصير الذاكرة ورموزها فولكلوراً ومجرّد «مناسبات»، فإنها تخسر وظيفتها ويصبح الاعتناء بالذكرى أقرب إلى متحفة مُضرّة، بما يجعلها حفل تأبين مستمر. وغنيّ عن القول أن ذهنية التأبين هي آخر ما يحتاجه الوعي التحرري وآخر ما تحتاجه قضية فلسطين، وهي كما نفهمها قضية تحرير بلد من استعمار إحلالي وتحرير المنطقة العربية كلّها من الهيمنة الاستعمارية المباشرة أو عبر وكلائها المحليين من المستبدّين. وهذه بديهية يلزم التأكيد عليها، إذ إن مفردة «قضية» أصابها في الأدبيات السياسية والتداول الإعلامي ما أصاب الذاكرة من تجفيف وإفراغ للمعنى، بحيث أصبحت تعني كل شيء باستثناء تحرّر الإنسان وتحرير الأرض.

في هذه الصفحات، أخذنا على عاتقنا محاولة قول جديد في النكبة، مدركين أننا في النهاية نقوم بمراجعة تاريخ من الأفكار تتفاوت صلاتها بالراهن. ولعل أبسط الأسئلة التي يمكن أن يسألها تلميذ في المرحلة الابتدائية، مثل لماذا «لم تتحرّر فلسطين حتى الآن؟» هو أكثر الأسئلة جوهرية، وهو السؤال الذي بدأ في أدبياتنا العربية بـ«لماذا هزمنا» و«معنى النكبة» و«تجاوزها». ونحن إذ ننتقل من حقل الأفكار إلى أرض فلسطين الدامية والآسرة والمتفائلة رغم جميع جراحها، وننظر إلى بعضنا، من بقي فيها ومن يكتب الآن من اللجوء عنها ولها، وإذ ننظر إلى شعبنا الفلسطيني وشعبنا العربي الذي يواجه نكبات، وإن بدت وطنية الطابع، فهي ذات صلة بالواقعة الاستعمارية. الآن ونحن في هذا الذي يصفه بعضنا بالدرك الأسفل وبعضنا الآخر بالمخاض القاسي، ننظر إلى شعبنا، إلى تاريخه المشرّف بالمقاومة وإلى تضحياته التي جعلتنا مَن نحن. ننظر إلى كل ذلك ونعرف ما علينا أن نفعله.

لبنان: النكبة ليست ذكرى

في لبنان لم يصطدم اللاجئون بعصبية قومية متمايزة، بل بعصبية طائفية مهيمنة رأت فيهم تهديداً ديمغرافياً للكيان الذي فُصّل على قياسها. لو أنني نشأت في بلد آخر غير لبنان لربما كان لي حديث آخر مع ذكرى النكبة، لكنني كبرت في مجتمع يفهم جزء كبير منه حق عودة لاجئي 48 بصفته الحق بطرد أحفاد أحفاد هؤلاء

زكي بيضون

نأمل دائماً أن تمرّ طقوس النكبة بلا أضرار بشرية (وخاصة على مذابح إقليمية لا علاقة لها بأصحاب العلاقة). لم أفهم يوماً لماذا نطلق على تلك الطقوس اسم النكبة، لماذا لا نسميها مثلاً طقوس العودة، ما دامت في معظمها تحاكي العودة الخلاصية وتتغنّى بها؟

بالمقابل، النكبة طقس حي وحاضر على مدار السنة في البلدان العربية الأساسية التي استقبلت المنكوبين ولم تفرط بأمانة نكبتهم. هذه البلدان لم تحافظ فقط على ذكرى النكبة، بل هي اجترحت معجزة إيقاف عقارب الساعة وتأبيد لحظة النكبة.

في هذه البلدان النيّرة، أحفاد اللاجئين المنكوبين وأحفاد أحفادهم يولدون لاجئين ومنكوبين في مخيمات وبيوت التنك التي بناها الأجداد (وإن كانوا غالباً محرومين من حقوق اللجوء التي تنص عليها الأعراف الدولية). تعد ولادة ابن المخيم بحد ذاتها لجوءاً بنظر الدول المعنية وهي تُوثّق بهذه الصفة في دائرة النفوس.

أولاد المخيم ما زالوا يتكلمون اللهجة الفلسطينية التي تكلّمها اللاجئون الأوائل ويحفظون غيباً الخارطة الفلسطينية التي لم تكن إلا جزءاً من الخارطة العربية أو السورية في عيون هؤلاء، كما كان عليه حال جبل لبنان في عين جبران خليل جبران. ابن المخيم، وإن كان قد تلقّن منذ نعومة أظافره الإيمان بالعودة الخلاصية مع أبعاده الروحية والميتافيزيقية، لا يحلم على الصعيد «الفيزيقي» إلا باللجوء من بلد لجوئه الأم إلى بلد غربي يحترم حقه كلاجئ ويسمح له حتى بأن يغدو مواطناً كامل الصفات بعد سنوات من دفع ضريبة اللجوء.

هذا الوضع البائس وغير المعقول لا يتعارض البتة مع موقع فلسطين في الوعي العربي، بل يجد تبريراً في الثوابت والمسلّمات اللاهوتية التي قام عليها هذا الأخير. فلسطين قلب العروبة ولا قيامة للأمة ما لم تسر فيه من جديد دماء العروبة، هزيمتا 48 و67 المدوّيتان لم تكونا سوى نكبة ونكسة على طريق النصر الموعود وانبعاث الأمة في لحظة ملحمية صلاح ـ دينية، وفي هذا السياق الإنكاري لا مانع من تبرير تأبيد النكبة واللجوء في سياق الإخلاص لقضية عودة اللاجئين تمهيداً لعودة الأمة. الفلسطيني ملح العروبة وحامل قضيتها، لكن ممنوع عليه أن يتساوى مع العرب الآخرين من مواطني الدول التي لجأ إليها، بل عليه أن يبقى فيها لاجئاً منكوباً بانتظار العودة الخلاصية مقرونة بولادة الأمة العربية الواحدة التي يفترض أن تذوب فيها الهوية الفلسطينية مع غيرها من الهويات العربية المؤقتة.

لكن، وبمعزل عن التبريرات اللاهوتية، يمكن تفسير المصير الذي آل إليه اللاجئون في سياقات داخلية للمجتمعات التي استقبلتهم. المنكوبون الذين لم يكونوا فلسطينيين بعد أن لجؤوا إلى مجتمعات كانت قد استهلّت للتو تلبننها أو تاردنها أو تسورنها.

إن كانت الهوية الفلسطينية المعاصرة ولدت من النكبة، فهذه الأخيرة كانت كذلك مرحلة مفصلية في تكوّن هوية هذه المجتمعات، وخاصة في الحالتين اللبنانية والفلسطينية. سأتوقف هنا عند الحالة اللبنانية التي عرفت المال الأكثر دراماتيكية، عدا أنها تعنيني شخصياً.

في الكيان اللبناني الذي كان طور التشكّل، ولا زال، لم يصطدم اللاجئون بادئ الأمر بعصبية قومية متمايزة، بل بعصبية طائفية مهيمنة رأت فيهم تهديداً ديمغرافياً للكيان الذي فُصّل على قياسها. المسيحيون لم يروا في اللاجئين لا فلسطينيين ولا غرباء، بل مسلمين يهدّدون هيمنتهم. أما المسلمون، وكان جزء كبير منهم يعتبر أن الكيان فرض عليه ويشعر نفسه أقرب إلى المسلم الفلسطيني أو السوري منه إلى المسيحي اللبناني، فوجدوا في اللاجئين سنّداً لهم في مواجهة الهيمنة المسيحية.

لو كان اللاجئون مسيحيين لكانوا على الأرجح جُنّسوا وفاقوا المسلمين اللبنانيين لبنانية وحقوقاً (الأمر الذي تشهد عليه المعاملة الخاصة التي حظي بها المسيحيون منهم)، كما كان ذلك ليطمئن المسيحيين اللبنانيين إلى غلبتهم العددية وربما يجعلهم أكثر ليونة مع مطالب المسلمين بالمساواة في الحقوق والمعاملة.

لكن اللاجئين كانوا في غالبيتهم العظمى مسلمين سنّة، الأمر الذي أدى إلى تقوية شوكة المسلمين وجعّلهم أكثر جسارة في مطالبهم، في حين صار المسيحيون أكثر تخوّفاً وتحفّظاً حيالها، والتخمة الدموية معروفة مع أبعادها الإقليمية وإسقاطاتها الإيديولوجية، مقرونة بالتطورات الدراماتيكية التي أطلقتها النكبة في العالم العربي وارتداداتها على الداخل اللبناني.

> **أبقى النظام السوري - اللبناني المخيمات بؤرا أمنية لاستخدامها عند الحاجة**

ودون الخوض في موضوع الحرب اللبنانية الشائك والمتفرّع، يهمني فقط أن أشير إلى أن الأخطاء الفادحة التي ارتكبتها القيادة الفلسطينية قبيل الحرب وأثناءها وضعت طائفة اللاجئين في مواجهة مع كل الجماعات اللبنانية الأخرى، وذلك لعب دوراً أساسياً في تشكيل هوية لبنانية جامعة في مواجهة الهوية الفلسطينية التي تشكّلت في المخيمات.

في الثامنة من عمري، أرسلني أهلي إلى مخيم تابع للحزب الشيوعي جمع أطفال المخيمات مع أطفال عائلات بائسة من كل الطوائف اللبنانية، إلى جانب عدد من أبناء الكوادر الشيوعية مثلي الذين صاروا برجوازيي المخيم. منذ اليوم الأول دبكت بين أطفال المخيمات وأقرانهم اللبنانيين، ولاحقاً صار على المسؤولين أن يهرعوا لاحتواء مفاعيل أبسط مشاحنة فردية قبل أن تتفشى كالدينامو في كل المخيم.

خلال خمسة عشر يوماً هناك، لم يسألني أحد إن كنت مسلماً أم مسيحياً، لكن كان عليّ أن أجيب بانتظام على سؤال: «فلسطيني ولّا لبناني؟». لاحقاً، وفي مواقف عديدة، حصل لي أن أقع على مسيحيين ريفيين لم يلتقوا بمسلم في حياتهم، وكانوا بعد أن يستفسروا مداورةً عن طائفتي المفترضة يحاولون التقرّب مني بالتذكير أن «الشيعة قاتلوا الفلسطينيين معهم». المؤرخ الإسرائيلي شلومو ساند يقول إن اليهودي في إسرائيل هو من ليس عربياً، ويمكن القول في سياق مشابه، إن الحرب حددت اللبناني بصفته من ليس فلسطينياً.

طائفة اللاجئين ليست بالطبع الجماعة اللبنانية الوحيدة التي حمل أفرادٌ منها السلاح وارتكبوا جرائم أثناء الحرب، لكنها بالتأكيد أكثر من دفع ثمنها ونُكّل به خلالها، ولاحقاً صارت هذه الجماعة المعذّبة كبش المحرقة ومتنفس كل أحقاد الحرب الدفينة لدى الجماعات اللبنانية الأخرى المتكارهة والمتكاذبة في ما بينها.

خلال سنوات الوصاية، عمل النظام الأمني السوري ـ اللبناني على إبقاء المخيمات بؤراً أمنية متوترة تحت سيطرته لاستخدامها عند الحاجة، واستمر على هذا النهج ورثته المفاعنة الذين بعد انسحاب الجيش السوري. وفي المقلب الآخر، تجد بين الإسلاميين حديثي النعمة من يرى في التنظيمات الفلسطينية المسلحة القابضة على المخيمات عنصر توازن مع السلاح المذهبي المقابل.

لكن بغض النظر عن هذه الاعتبارات، يجب الاعتراف بأن العنصرية والكراهية المتفشية بين مختلف أطياف المجتمع اللبناني حيال الفلسطينيين (وإن بدرجات متفاوتة) سهلت إلى حد كبير ديمومة الوضع الكارثي في المخيمات وسمحت به.

لو أنني نشأت في بلد آخر غير لبنان لربما كان لي حديث آخر مع ذكرى النكبة، لكنني كبرت في مجتمع يفهم جزء كبير منه حق عودة لاجئي 48 بصفته الحق بطرد أحفاد أحفاد هؤلاء، حق العودة هو بالتأكيد قضية محقة، لكنها ليست أولوية معيشية لمن هو في مثل وضع أبناء مخيم نهر البارد أو عين الحلوة.

هذا عدا أنني لم أرتح يوماً لتعابير ملتبسة تحضر بشدة في ذكرى النكبة على غرار «اللاجئ الفلسطيني»، «فلسطينيي الشتات»، «الوجود الفلسطيني» في هذه الدولة العربية أو تلك، إلخ. بالنسبة لي، اللاجئ الفلسطيني الذي جزء كبير منه حق عودة لاجئي 48 بصفته الحق بطرد أحفاد أحفاد هؤلاء، حق العودة هو بالتأكيد قضية محقة، لكن بغض النظر عن هذه الاعتبارات، يجب الاعتراف بأن العنصرية والكراهية المتفشية بين مختلف أطياف المجتمع اللبناني حيال الفلسطينيين (وإن بدرجات متفاوتة) سهلت إلى حد كبير ديمومة الوضع الكارثي في المخيمات وسمحت به.

لو أنني نشأت في بلد آخر غير لبنان لربما كان لي حديث آخر مع ذكرى النكبة، لكنني كبرت في مجتمع يفهم بغرائزه أن الفلسطيني ليس لاجئاً ولا فلسطينياً بل هو لا يقل عني لبنانية، بالضبط كما اعتبر أن ابن المهاجر الجزائري الذي ولد في فرنسا لا يقل فرنسية عمّن يسمي نفسه الفرنسي الصفوة.

ولا يقولن لي أحد أن ابن المخيم يعيش في مجتمع مواز ومنعزل عن المجتمع اللبناني، فالمجتمع وحدة دينامية وكل لا يتجزأ ومن يعش في أقبيته ومجاريره يقل عنه الكثير، وبل أكثر مما يقوله جزؤه الظاهر.

(كاتب لبناني/ باريس)

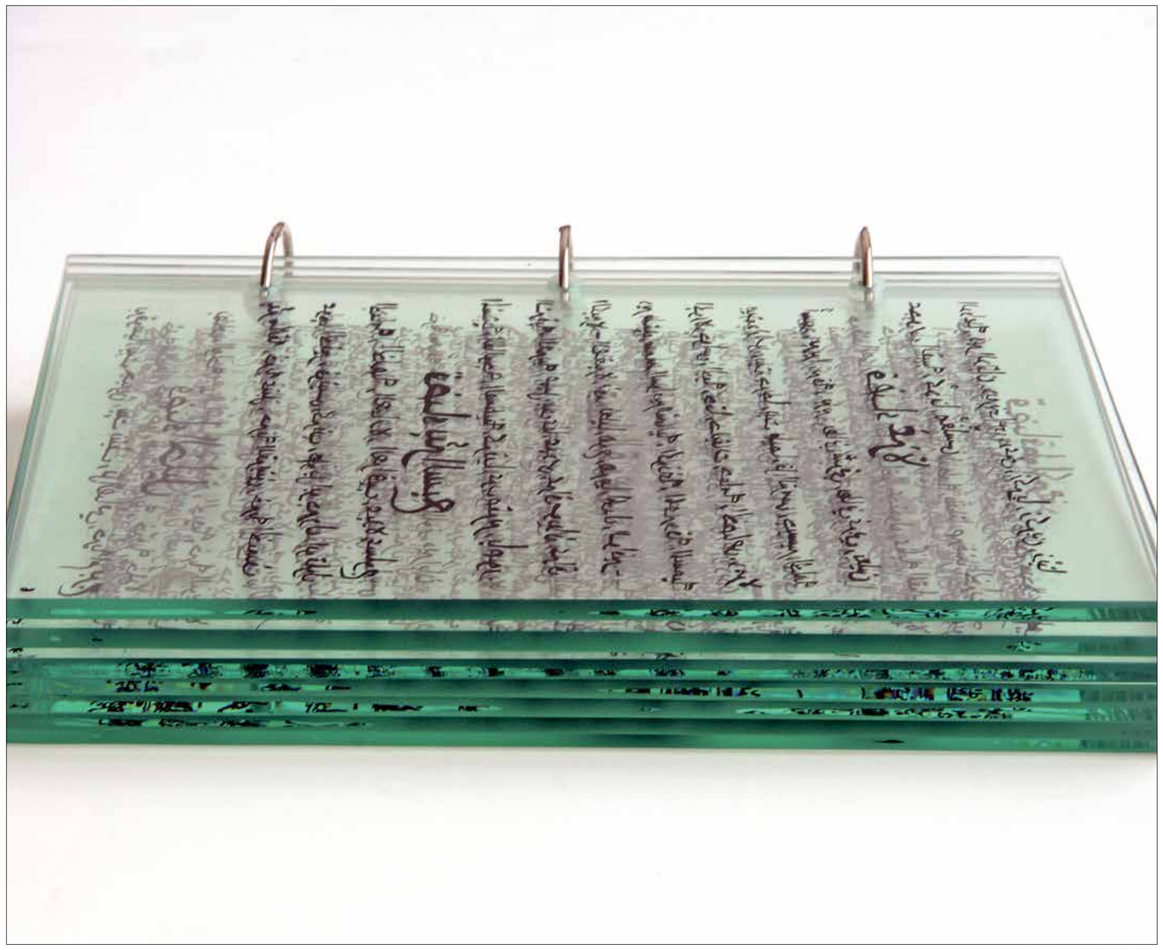

«كتاب النكبة الزجاجي» (2013)

إدامة النكبة

لا تحتاج النكبة إلى ذكرى، بل هي واقع ملموس وحاضر على مدار السنة في البلدان العربية الأساسية التي استقبلت المنكوبين ولم تفرط بأمانة نكبتهم. هذه البلدان لم تحافظ فقط على ذكرى النكبة، بل هي اجترحت معجزة إيقاف عقارب الساعة وتأبيد لحظة النكبة.

في هذه البلدان النيّرة، أحفاد اللاجئين المنكوبين وأحفاد أحفادهم يولدون لاجئين ومنكوبين في مخيمات وبيوت التنك التي بناها الأجداد. تعدّ ولادة ابن المخيم بحد ذاتها لجوءاً بنظر الدول المعنية وهي تُوثّق بهذه الصفة في دائرة النفوس.

مساعلة

على ضوء نكباتنا العربية

محمد ديبو

مع الثورة السورية، لم تغب فلسطين عن البال، وإن كانت أقصيت بفعل الوجع السوري درجة إلى الوراء، الأمر الذي جعل حضورها في خضم الحدث السوري، مترافقا مع الشعور بإثم الخيانة، إثم من خان حبيبته؛ قضيته الأولى. أليست هي قضية العرب المركزية؟ أما زالت كذلك بعد تتالي النكبات العربية: بغداد، دمشق، صنعاء، بيروت، طرابلس.. في الوقت الذي ترزح فيه البلدان الباقية في نكبة الاستبداد المزمنة؟ هل قلنا نكبة الاستبداد؟ ألم نكن نعشها سابقا؟ لم نكتشف نكبتنا الاستبدادية إلا متأخرين، وهل كان غرقنا في قضية فلسطين ونكبتها الدائمة على حساب نكبتنا الخاصة؟ هل كانت فلسطين طريق هروبنا من مواجهة دكتاتورنا، أم أن دكتاتورنا ضحك علينا وأقنعنا أن تحرير فلسطين هو الطريق الوحيد إلى الحرية والديمقراطية و«بناء المجتمع العربي الاشتراكي الموحد»، لنحصد كل هذا الخراب؟ بعد أن أصبح لكل منا نكبته، فلسطينه، بعد أن كان لنا فلسطين واحدة، نكبة واحدة من «المحيط إلى الخليج» وفق مفردات البعث!

ولكن، هل يمكن فصل النكبات عن بعضها؟

لم تكن الثورة السورية، والثورات الأخرى بطبيعة الحال، رغم غرقها في الشأن الداخلي المحض، إلا امتحاناً قاسياً وقراءة نقدية جديدة وقاسية بسار طويل طالما احتلت قضية فلسطين واسطة العقد فيه، مرة بفعل الحضور القومي القوي لدى الشعب السوري، إذ كانت النكبة مؤثراً فاعلاً في الحياة السياسية السورية، إلى درجة أنها المسمار الذي دق إسفين حكم الكتلة الوطنية والبرجوازية التقليدية في جمهورية الاستقلال، لتصعد على ظهرها الأحزاب القومية الراديكالية التي جعلت من تحرير فلسطين أولوية لها، ومرة بفعل استخدام السلطة «القومية» سلعة «تحرير فلسطين» لتخدير الداخل والتسلّط عليه، بدلاً من تحريره ليكون مؤهلاً لتحرير فلسطين.

مع هذا الحضور القوي لفلسطين في الذاكرة السورية، وصل «العقل السوري» حدّ أن تصبح فلسطين المعيار الذي تقاس به كل الأمور، مرّة بفعل إيمان قسم كبير من السوريين بذلك، ومرة بفعل إيديولوجية السلطة التي علّقت كل شيء على مشجب إسرائيل، وأجلت كل إصلاح إلى أن تتحرر فلسطين ونمحو عار النكبة وذلّ النكسة! فأصبح الداخل السوري يقاس ويفكر به على إيقاع الحدث الفلسطيني.

خلال مسار الثورة السورية وعلى وقع أحداثها، كان البنيان النظري والعملي لهذه المسألة يتهدّم في نفوس السوريين، الذين اكتشفوا أن «جيشهم الوطني» مستعد لتحرير سورية منهم ومن كل فلسطيني، وأن «المقاومات» التي دعموها هنا وهناك، لم تكن إلا مقاومة لحلمهم بالحرية، وأن السياسيين والمثقفين والمغنين الذين يريدون تحرير فلسطين من النهر إلى البحر، ليسوا أكثر من جوقة تطبّل للمستبد، جوقة ترى في فلسطين مجرد قضية لا يشر لها، وفي الشعوب الأخرى مجرد وقود يجب أن يفنى لتبقى راية القضية مرفوعة، فليمت الشعب السوري واليمني والعراقي والفلسطيني طالما أن النظام الرافع لواء القضية صامد ليحرر لنا فلسطين! دون أن يرى هؤلاء، أن من هجّر من سورية والعراق واليمن على يد الدكتاتوريات يوازي أعداد فلسطيني الداخل والخارج معاً؛ وأن ما قتل على يد الدكتاتوريات أكبر بما لا يقاس بما قتل على يد المحتل الإسرائيلي، وأن طرق التعذيب والقتل و شروط الاعتقال (نرى المعتقلين الفلسطينيين على الشاشات وفي المحاكمات، هل يمكن لأحد أن يرى معتقلاً سورياً أو يعرف مصيره؟)، لنعرف من كل هذا أن مثقفينا، «المانعون تحديداً»، تحكمهم أيديولوجيا القضية أكثر من القضية، بعيداً عن المعرفة التي يجب أن تكون شرط كل قضية.

الحصار والتجويع والقصف والاعتقال والحواجز التي عاش في ظلها السوريون (ولا يزالون) خلال مسار ثورتهم، جعلت منهم فلسطينيين بطريقة أو بأخرى. وخلال معاناة السوريين لما سبق أن عاشه وعانى منه الفلسطينيون، كانوا يقارنون محنتهم على ضوء المحنة و يشعرون بالخجل وقسوة الأيديولوجيا وسهولة رمي الاتهام وتنظيرهم السابق على الفلسطينيين، حين يرميهم اليوم الآخرون بما سبق أن قالوه هم ضد فلسطينيين اختلفوا معهم في الرأي! إنه الاكتشاف المعذّب بالدم والخجل.

هذا غيض من فيض، مما جال في أذهان السوريين وهم يراقبون سقوط «المسألة الفلسطينية سورياً»، وتهتك خطابها، إذ كانت أعمدة الهيكل الأيديولوجي تهدّمت على وقع دم السوريين المسفوح على نكبة المقاومة وفلسطين في آن، دون أن يعني ذلك أن السوريين نسوا فلسطين، وأن فلسطين لم تكن حاضرة في الموضوع السوري الذي نراه مكثفاً في مخيم اليرموك. إذ يدرك السوريون جيداً أن إضعاف سورية وتشتيت الفلسطينيين لإلغاء حق العودة وتفكيك الدولة السورية، هو هدف يصب في مصلحة إسرائيل أولاً وآخراً، وأن نظامهم ما كان ليصمد لولا «الرضى الإسرائيلي» الذي ينظر بعين الغبطة إلى تلميذ فاقه إجراماً، وهو يدمر «قلعة الصمود والتصدي» بيديه.

يبدو أننا كنا نحتاج لنكبات عربية كبرى، كي يستقيم وعينا وتفكيرنا بالنكبة الفلسطينية ليمشي على قدميه بدلاً من رأسه. أن لنا بعد كل الدماء، أن نفكر بنكبة فلسطين واقعياً، عبر إحلال العقل مكان الأسطورة، والمعرفة مكان الإيديولوجيا، والشعب مكان القضية، والحرية الوطنية طريقاً لتحرير فلسطين، بدلاً من «لا صوت يعلو على صوت المعركة». علّنا بذلك نستعيد حريتنا لندبا طريق غسل عارنا من نكبتنا الطويلة، ولنعيد الحلم إلى أصحابه، ولتعود صديقتي إلى فلسطينها ويرموكها في آن.

(كاتب سوري/ بيروت)

لمَ سمّيناها «النكبة»؟

هذه هي نكبتنا الحقيقية؛ سقوط الدول التي قامت على رغبات وخطايا، وليس تاريخ 1948 إلا شاهداً عليها

محمود منير

تحضرني في الخامس عشر من مايو/ أيار ملاحظات أساسية حول «النكبة» و«اللجوء» بوصفهما أبرز مصطلحين يؤكدان على إبشع احتلال في التاريخ الحديث، وإلى هزيمة تاسست حكومات وجيوش من أجل محوها، غير أن انهيار الدولة العربية، في الوعي وعلى أرض الواقع، يعيد التساؤلات عن مفهوم الأمة والجماعة، ومن دون إجابة عنها ليس هناك معنى متحقق للأرض، ولا دلالات متعينة لتحريرها!

لمَ سميناها «النكبة»؟ سؤال يستوقفني مثل كثيرين، ويحيل إلى مفارقة أولى لدى الرجوع إلى كتب التراث، إذ اقتصر استخدام هذه المفردة على ذكر خراب المدن الذي خلّفته الحروب الداخلية بين الأشقاء وأبناء العم على الخلافة، أو بسبب احتجاجات شعبية سرعان ما انقلبت إلى حروب أهلية.

نكبات بغداد ودمشق وحمص ومكة والمدينة وغيرها هي وسم لمأساة انتجتها صراعاتنا الأهلية، كما سجّلتها المراجع التاريخية، بينما لم يتردّد مؤرخ عن تسمية دخول التتار عاصمة الخلافة عام 1258م «السقوط» و«الغزو». فلماذا راق لنا إطلاق «نكبة» لوصف أبشع تطهير عرقي قامت به العصابات الصهيونية، وتشريد ثلثي أهل فلسطين، وممارسة إحلال ممنهج للإنسان والمجتمع ومنظومتهما الثقافية؟

ربما لم يعتقد أحدنا أن النكبة ستعني مع رجال الأعمال الجدد، لتكتمل فصول الخديعة في الانفجارات الاجتماعية الأخيرة، فشهدنا انهياراً كاملاً لأوطان واندلاع حروب قبلية في أكثر من بلد عربي، في الوقت الذي تتجهز فيه البلدان الباقية للانخراط في حرب تتسع رغم تفاؤل كثيرين بتطويقها لأسباب ميتافيزيقية أو تتعلق بإرادات خارجية.

لم تقتطع فلسطين من أمة ناجزة؛ عملياً ونظرياً، وعليه لا غرابة أن تنهار الدولة القُطرية العربية عن مشاريع خاسرة قبل أن تستعيد أراضينا المستلبة، كما أننا لن نستطيع تحرير فلسطين إذا لم نواجه امتحاننا الحقيقي بدل الهروب في مغاور التاريخ أو متاهات الغيب. هذه هي نكبتنا الحقيقية؛ سقوط الدولة التي قامت على رغبات وخطايا، وليس تاريخ 1948 إلا شاهداً عليها، وبذلك يغدو اللجوء الفلسطيني منذ 67 عاماً مدخلاً إجبارياً للوعي العقلي إلى الشك والاحتماء بأسئلته الجارحة عن حقيقة قاسية وعارية في آن.

مئات آلاف الشهداء العرب على امتداد الجغرافيا الحائرة طوائف وعشائر، ومثلهم من الجرحى والمعاقين، وأضعافهم من اللاجئين داخل المكان وفي المنافي البعيدة، في السنوات الأخيرة، ولم نستطع الإجابة عن أسئلة: من نحن؟ وما هي أزمتنا؟ وماذا نريد؟

العجز عن التفكير في أصل مشكلتنا طوال العقود الماضية حوّلنا إلى مجرد ضحايا يسقطون في فخاخ الشعارات رحماً من الزمن، لكنهم يضاعفون عجزهم حين ينقلبون على حالهم منقادين وراء الأمهم لا الأمل في التغيير، في إصرار على إبقاء نكبتهم مفتوحة ولجوئهم بلا عودة!

(كاتب أردني/ عمّان)

«كتاب النكبة الزجاجي»

تسييس المعاناة وخصخصة الذاكرة

ثمّة إجماع متزايد على أنّها ليست لحظة تاريخيّة فاصلة، بقدر ما هي حقبة متحرّكة في فضاء استعماريّ واسع لمشروع تغييب وجوديّ و حضاريّ

مصطفى قصقص

تجتهد قراءة النكبة وكتابتها في العقدين الأخيرين، دون نجاح، في التخلّص من سجن القراءات التاريخيّة الضيّقة إلى قراءة أرحب أفقاً وأوسع مدى. ثمة اشتغال فكريّ وأدبيّ متقدّم لتحريرها تدريجيّاً من هيمنة المفاهيم الأحاديّة، حول معناها ومضامينها ورصد سروراتها ومفارقاتها وذاكراتها المتوازية والمتقاطعة بين الفرديّ والجمعيّ، بين الشخصيّ والوطنيّ، بين الخاص والعامّ. وثمّة إجماع متزايد على أنّها ليست لحظة تاريخيّة فاصلة، بقدر ما هي حقبة متحرّكة في فضاء استعماريّ واسع لمشروع تغييب وجوديّ وحضاريّ مدجّج بالمعرفة الاستشراقية الضارية. النكبة هي اسم من أسماء الاستعمار الإحلاليّ، وبالتالي هي حدث بنيويّ أي متأصل ولامنته، يتجاوز التطهير العرقيّ وإبادة الذاكرة إلى عقليّة الجينوسايد، كما يتجلّى في طروحات نظريّة نقديّة جديدة لمارتين شو وآخرين. تستند هذه الطروحات إلى تعريف الجينوسايد لرفائيل لمكين في كتابه (1944، Axis Rule of Occupied Europe)؛ «تدمير النمط القوميّ للمضطهَد وفرض النمط القوميّ للمضطهِد على الجماعة التي سُمح لها بالبقاء، أو على الأرض، بعد ترحيل الجماعة المضطهَدة واستعمار الأرض من قبل الجماعة المستعمِرة». تهميش النكبة من دراسات الجينوسايد، رغم انضوائها تحت هذا التعريف يوفّر دليلاً إضافياً على تسييس الأجندة الأكاديميّة الغربية في هذا المجال. وهو تسييس يفسّر أيضاً استبعاد النكبة من دراسات الصدمة في الجامعات الأميركية والأوروبية، كما تشير إليه روزماري صايغ في نقدها للمحورية الغربيّة للمعاناة، كجزء من عدم الاعتراف بالعنف الاستعماري في الماضي والحاضر كمسبب رئيسي للمعاناة في العالم المعاصر. تعريف النكبة كسياق تاريخي ممتدّ من القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا، يعني إدراك تمترسه خلف منظومة ثقافية وسياسية متجذّرة ومتنامية لا تطمئنّ لتفوّقها بل تحضنه، معرفياً وأيديولوجيّاً، بهجوم استباقيّ لا يكلّ على كلّ ما يهدّدها أو ينال من قدرتها على الاستفراد بالرواية وبالخطاب. الحضور المحاصر للنكبة في الأوساط الأكاديميّة المركزيّة هو انعكاس للاستفراد بالوعي والخطاب، على نحو يعيد إنتاج واقع مزمن وتصعيديّ من الظلم و تكريس وتيرة الذات الغربيّة من أيّ مسؤوليّة عنه.

ثمّة حاجة استراتيجيّة، والحال هذه، لوضع وتنفيذ أجندة أكاديميّة حول النكبة تواجه هذا الإنكار غير البريء وتسائل دوافعه الأيديولوجيّة و تواطؤه، الواعي أو غير الواعي، مع مراكز القرار السياسيّ في العالم. دون أن يعني ذلك بالطبع تجاهل الأصوات الشجاعة المغرّدة خارج السرب الأكاديميّ الغربي.

إلّا أن هذا التوجّه يجب أن يحتكم أولاً وأخيراً لمعايير بحثيّة رصينة وجريئة، تقاوم غواية الخطاب الضحويّ والصدميّ وتحتمي بالعقل كإمام. ولعلّ الأرشيف المتراكم من الذكريات والشهادات، وإن لم يزل ناقصاً وفقيراً، تأميم ذاكرتها الجماعية، أي تجنيدها واحتكارها سياسياً، في إهدار إشكاليّ لفسيفساء هائلة من خصوصيات التجربة ومعاشاتها الإنسانية، وإمكانيّات فهمها، بصرف النظر عن بطولتها أو ضعفها.

(باحث سيكولوجي فلسطيني/ لندن)

قرية العراقيب/ النقب الفلسطيني

مراجعة

رؤية نقدية عابرة للأجيال

لم تمرّ النكبة دون أثر على النخب العربية. كانت ارتطاماً قوياً بالواقع استدعى إعمال العقل فيها بجدية قلما توفرت لموضوعات أخرى. من قسطنطين زريق إلى عزمي بشارة، انشغلت أجيال المفكرين العرب بالنكبة، يقاربونها ويفككونها ويطرحون المخارج لتجاوزها، غير أن رؤى هؤلاء كانت محكومة بمناخات عامة، وإشكاليات الأوطان التي ينتمون إليها ضمن الإطار العربي العام الذي لا يفتأ يمر من تاريخ عاصف إلى آخر

النقد الذاتي في مقاربة النكبة

الدفاع عن صحة الرأي الصحيح

«لاجئة تزور بيتها» قرية لفتا/القدس

انطوان شلحت

ولَدت النكبة الفلسطينية أدباً سياسياً عربياً سعى كتّابه، من منطلقات فكرية متعدّدة إلى سبر معناها ومعرفة أسبابها والإشارة إلى سبل كفيلة بتجاوزها. وإن كانت الحاجة الآن إلى قول متجاوز إلا أن عرضاً سريعاً لهذا الأدب السياسي، ولا سيّما الذي اشتمل على رؤية نقدية للذات أولاً، أمر ضروري، أيضاً، في سياق المراجعة النقدية لوعي النكبة ومثلاتها.

في واقع الأمر، واكبت هذه الرؤية النقدية النكبة لحظة حدوثها، واستمرت حتى يومنا هذا، بحيث يصح القول بشأنها إنها رؤية عابرة للأجيال.

تكامل الانتماءات

جاء حصاد البداية على يدي جيل من المثقفين القوميين هجس، أكثر من أي شيء آخر، بمشروع العمل الوطني والقومي، فانهمك حتى النخاع في صوغ أسس هذا المشروع ورؤاه. حرص أبناء هذا الجيل على تحقيق مطلبين هما: أولاً، التزوّد بالثقافة التي تتعانق فيها وتتكامل الدراية الواسعة العميقة بالتراث الثقافي والحضاري العربي - الإسلامي، مع التهام شتى عطاءات العلوم والآداب والفنون الغربية القديمة والحديثة. ثانياً، الغوص في هموم مجتمعهم وأمتهم العربية والبحث عن أسباب تخلفها، والعمل بالفكر والنضال من أجل تجاوز ذلك التخلف ومن أجل توليد كيان عربي موحد وحديث ومتكامل، يرفد بعطائه الأمة العربية وسائر شعوب العالم.

وقد أصاب عزمي بشارة حين أكد أننا بتنا نفتقد هذا الجيل في الزمن الحالي «لأنه جيل جمع ما بين القومية العربية والوطنية الفلسطينية من دون أن يتنازل عن أي منهما، ولم يعش توتراً بين الانتماءين، بل على العكس عاش تكاملاً بين الانتماءين، وفي الوقت نفسه لم يكن وليد صدمة الحداثة أو الصراع بين الحداثة والأصالة، وإنما رأى، أيضاً، تكاملاً بينهما».

في ذكرى مرور 60 سنة على النكبة أصدرت مؤسسة الدراسات الفلسطينية كتاباً بعنوان «نكبة 1948: أسبابها وسبل علاجها»، وهو من الكتب المهمة في هذا المجال، ويضم كتابات أربعة من رجال الفكر العرب البارزين.

لا ضير في العودة إلى الخلف

قدّم للكتاب الباحث وليد الخالدي، مؤكداً أنه «لا يضير العرب، في هذه الذكرى، أن يعودوا إلى الخلف ليستذكروا وقع النكبة على الآباء والأجداد الذين عاشوها وعاصروها، وليستشفوا ما أدركه أنفذهم بصيرة منهم عن حقيقة الصهيونية، وما تحمله من أخطار لا على فلسطين فحسب، بل، أيضاً، على العرب أجمعين، وليقارنوا بين هذه التوقعات وما حدث فعلاً - منذئذ - عسى أن يعينهم ذلك على الاستهداء على هوية عدوهم الحقيقي وسط البلبلة العارمة التي يتيه فيها وطننا اليوم».

ويشير الخالدي إلى أن أولئك الكتّاب «استحوذت نكبة 1948 على مشاعرهم وأذهانهم، فانكبوا وهم تحت وطأتها المباشرة على تصفية أفكارهم في ما يتعلق بأبعاد النكبة، وطبيعة الصهيونية وأهدافها، وأسباب هزيمة العرب، وسبل العلاج والمعالجة القريبة منها والبعيدة».

والأربعة الذين اختارهم الخالدي، هم: المؤرخ السوري قسطنطين زريق، والطبيب جورج حنا اللبناني، والمحامي السياسي موسى العلمي وعالم الرياضيات قدري حافظ طوقان الفلسطينيان.

الأول كتب «معنى النكبة» الصادر سنة 1948، والثاني كتب «طريق الخلاص» الصادر سنة 1948 أيضاً، والثالث كتب «عبرة فلسطين» الصادر سنة 1949، والرابع كتب «بعد النكبة» الصادر سنة 1950.

كان زريق أول من عمّم تسمية «النكبة» التي وصفها، أيضاً، بأنها «الهزة العنيفة» و«الخطر الأعظم» و«الأزمة الخانقة»، ووصفها جورج حنا بـ«الفاجعة الفلسطينية أو بالأحرى فاجعة العرب في فلسطين»، بينما وصفها العلمي بـ«الكارثة القومية الشديدة» وطوقان بـ«الكارثة التي حلّت بالأمة العربية في فلسطين».

تسجيل نكبات أخرى

في حقيقة الأمر، لجأ زريق إلى منهج النقد الذاتي في مقاربة النكبة، ولم يفارقه في كل كتبه اللاحقة. وفي الوقت الذي لم يتجاهل دور العوامل الخارجية وقوة العدو الذي يواجهه العرب، ركّز جهده الفكري، منذ وقت مبكر، على استكشاف مسؤولية العرب الذاتية في النكبة وفي السنوات اللاحقة.

وتمثيلاً على منهجه هذا، في مقال نشره في كانون الثاني/ يناير 1991، تعليقاً على حرب الخليج التي أعقبت قيام النظام العراقي بغزو الكويت، كتب زريق ما يلي: «في الأيام الأولى بعد حرب 1948 وقيام إسرائيل وتهجير العرب الفلسطينيين والعجز الذي بدا من الدول العربية وجيوشها، نفثت عما كان يجول في نفسي من خواطر مقلقة بكتيب دعوته: معنى النكبة. ولعل هذا الكتيّب كان أول ما طرح هذه التسمية لتلك الهزيمة حينذاك. وحاولت فيه أن أحلل الأسباب البعيدة والقريبة لتلك الواقعة في ضوء الامتحان الداخلي والنقد الذاتي، وأن أتلمس سبل الخلاص من الضعف الذي كنا نعانيه... ثم وقعت نكبة 1967 التالية - لا «النكسة» كما أراد تصويرها بعض حكام العرب ومفكريهم - فوجدت نفسي مدفوعاً إلى إعداد كتيب آخر دعوته: معنى النكبة مجدداً، جريت فيه على مثال الكتيب الأول في محاولة تحليل الأسباب وتقويم النتائج واستخلاص العبر. وقد جاءت الآن هذه الحرب المشتعلة لتثير في نفسي التساؤل عمّا إذا كان يجب متابعة الجهدين السابقين بتحليل مشابه لهما يدعى: معنى النكبة مثلثاً».

وتابع زريق: «الواقع أن المرء إذا رصد مسيرتنا في العقود الأخيرة وجد مناسبات عدة لتسجيل نكبات أخرى وتحليلها، إذ إن هذه النوائب ليست مصحورة في الحروب وهزائمها وخسائرها، بل تمتد إلى غيرها من نواحي الحياة. فثمة نكبات في شؤون الحكم، وفي العلاقات الخارجية (وأبرزها في السنوات الأخيرة خروج مصر السادات على الإجماع العربي ومصالحتها إسرائيل من دون ضمان حقوق الفلسطينيين)، وفي السياسات الاقتصادية الخاطئة المهدرة للموارد والمعيقة للنهضة وفي «الخطط» الاجتماعية والتعليمية التي تثقل أعباءنا بدلاً من أن تخففها، وفي استشراء الفساد في كثير من وجوه حياتنا الخاصة والعامة».

الهزيمة والأيديولوجيا المهزومة

تبنّى منهج النقد الذاتي هذا عدد من المفكرين العرب، غير أن أكثر من سَدّد على أهمية الالتزام بمنهج النقد الذاتي، هو ياسين الحافظ، في كتابه «الهزيمة والأيديولوجيا المهزومة» الصادر سنة 1979، والذي طالب فيه المثقف العربي بهجر «الوعي الامتثالي» والانتقال إلى «الوعي النقدي»، معتبراً أن الثورية الحقة هي تلك التي «ترفض تغطية عورات الواقع العربي، في جميع حيزاته ومستوياته. ترفض أن ترش على العفن العربي عطراً، وعلى الموت العربي سكراً».

تسمي الأشياء بأسمائها، ترفض التهوين من حجم بلايانا العربية، ترفض تبسيط وتسطيح مشكلاتنا».

وأضاف الحافظ، أنه بات مطلوباً بعد كل الهزائم والإخفاقات التي لحقت بالعرب، «أن تنتهي عمليات التبخير الذاتي، وأن تطلق عملية نقد ذاتي صارمة تخترق المجتمع العربي (لا السطح السياسي فقط) طولاً وعرضاً وعمقاً، بلا خوف، بلا مراعاة، وبالطبع بلا تشفٍ».

لا بُدّ من أن نلفت، بين هذا الجيل أيضاً، إلى مساهمة أنيس الصايغ وأساساً عمله الدؤوب في إنجاز بحث مماثل يعتمد الشروط العلمية الصارمة للدراسة، حتى وهو يتصدّى لدراسة العدو، ولذا فإنه تجنّب الوقوع في شراك الموروث الشعبي أو الأساطير المختلقة في هذا الشأن. وكان الصايغ يردّد أن أحد أسباب الردّة في العالم العربي يعود إلى واقع أن أساسنا الوطني القومي الوحدوي العلماني التقدمي كان أساساً عاطفياً، ولم يكن مبنياً على استعمال كامل العقل والإدراك.

طروحات عن النهضة المعاقة

من جيل المفكرين الحالي تميّزت مساهمات عزمي بشارة، الذي فتح العلاقة بين السياسة والثقافة على أفق الحوار، باعتبار ذلك شرطاً من شروط تحديث الوعي الاجتماعي، وإقراراً بأن أي مشروع سياسي هو مشروع ثقافي بامتياز. وفي ضوء ذلك ظل يحمل هاجس النهضة الثقافية، وجاء كتابه «طروحات عن النهضة المعاقة» بمثابة إنباء مدوٍّ به.

رأى بشارة أن معركة النهضة ليست معركة حرية تعبير، وإنما معركة دفاع عن العقل ضد الخرافة، عن العلم ضد الجهل، عن التجريبية ضد الغيبية، عن النقد العلمي ضد العقائدية. إن المعركة برأيه هي «الدفاع عن صحة الرأي الصحيح» لا عن «حق صاحب الرأي في التعبير عن ذاته، ولو كانوا لا يتفقون معه».

كما رأى أن معيقات النهضة هي معيقات اجتماعية ناشئة تاريخياً، وليست عربية الجوهر، مركزاً على المحاور التالية: أولاً العلاقة مع الحداثة، ذلك أن نقد الحداثة في الغرب بمصطلحات ما بعد الحداثة عادة ما يستعمل كمبرّر لعداء التحديث في مجتمعات لم تبلغ الحداثة بعد كي تقفز إلى ما بعدها، كما في حالة المجتمعات العربية. ثانياً، الغيبية في السياسة، بما في ذلك الغيبية في «صنع صورة الآخر». ثالثاً، مناقشة المتكلم هروباً من مناقشة كلامه. رابعاً، الحرية هي جوهر الفكرة الأخلاقية في التنوير. وأخيراً، أن الفكرة القومية الديمقراطية، والتي تعتبر بصمته المخصوصة أكثر شيء.

ديمقراطية الفكر القومي

يجب الإشارة هنا إلى توكيده أن الفصل بين المفهومين يجعل القومية شوفينية وسياسات هوية خاوية، كما أن غياب الوجهة الديمقراطية التنويرية للفكر القومي يؤدي إلى وجهة أخرى أصولية، لا تنأى عن الأصولية الدينية، من حيث نمط الوعي أو من حيث الإكثار من استثمار الخرافات والأساطير.

بيد أن بشارة لم يتوقف عند جوهر المعيقات الرئيسة للنهضة، وإنما تعدّى ذلك إلى «مسح» النماذج البشرية، التي تجسّد تلك المعيقات في الحياة والممارسة اليومية. إن تقديم هذه النماذج البشرية عادة ما يجري على قاعدة الثغرية وسير غور المكنونات، وصولاً إلى هتك الغلالة السميكة عن مسلكيات وقعت تبيئتها وظل وعينا غافلاً عنها حتى استحال إلى ما يشبه لاوعي يتحمل، بدوره، جانباً من المسؤولية عن عدم محاصرة تلك النماذج. وهذا النسق من «المسح» ينطوي على موقف نقدي للمفكر يعتبر، في الآن ذاته، مساهمة في التحدّي والمواجهة.

(كاتب فلسطيني/ عكا)

تعقيب

كي لا تظل النكبة «مستمرة»

لماذا لا تزال النكبة مستمرة؟ اي لماذا لم ينتصر الشعب الفلسطيني بعد عقود من الصمود والتضحيات الجسيمة؟

خليل شاهين

تتجاوز الرواية الشفوية للاجئ الفلسطيني حدود حصر النكبة في زمانها ومكانها، حيث دارت أحداثها عام 1948؛ إذ استطال الزمان وتغيّر المكان طيلة عقود تالية. لذلك، تختتم الرواية غالباً بمقولة تلخّص الوعي المأسور بالحدث المؤسس، مفادها أن «النكبة لا تزال مستمرة»، في إشارة إلى استمرار واقع اللجوء.

غير أن هذه المقولة تطرح أمام الفكر السياسي الفلسطيني، وكذلك الحركة الوطنية، تحديات تتجاوز إطار السردية التاريخية لتشكل بالإجابة عن سؤال: لماذا لا تزال النكبة مستمرة؟ أي لماذا لم ينتصر الشعب الفلسطيني بعد عقود من الصمود والتضحيات الجسيمة؟

لا شك في أن قسطاً من الأسباب يتعلق بالعوامل الذاتية الفلسطينية، وكذلك بالعوامل العربية والدولية، لكن قسطاً آخر ينبغي أن يركز على مستوى التقدم الذي حققه المشروع الصهيوني الاستعماري الاستيطاني العنصري على الأرض. وهو ما يلخّصه تقرير الإحصاء الفلسطيني باستعراضه بيانات حول بعض النتائج التي حققتها منظومات السيطرة والتحكم للمشروع الصهيوني، وأهمها أن إسرائيل باتت تستغل أكثر من 85% من المساحة الكلية لأراضي فلسطين التاريخية، بينما يستغل الفلسطينيون حوالى 15% فقط من مساحة الأراضي. تشير هذه البيانات إلى أن «استمرار النكبة» يعني أن المشروع الصهيوني الاستعماري الاستيطاني العنصري لا يزال مفتوحاً على مآلات قيد التشكل بقوة الوقائع المفروضة على الأرض. الأمر الذي يفرض استمرار فتح الصراع نفسه، واستبعاد فرضية التوصل إلى تسوية سياسية ضمن موازين القوى القائمة، تكفل تحقيق مشروع الدولة الفلسطينية المستقلة على حدود 4 يونيو/حزيران 1967، وعودة اللاجئين إلى ديارهم، وممارسة حق تقرير المصير. ليست هناك رؤى واضحة أو تنبّؤات حول نقطة النهاية التي سوف يغلق عندها المشروع الصهيوني، لا سيما في مستويات تقدمه على الأرض الفلسطينية، بصفتها عنوان الاستهداف الأبرز لهذا المشروع منذ ما قبل نكبة 48. غير أن هذه العملية بحد ذاتها في ظل ضعف أو غياب استراتيجيات مواجهة فلسطينية فعالة، ومواقف عربية ودولية مؤثرة في مجريات الصراع، تحمل معها مزيداً من الاختلال في ميزان القوى لصالح استمرار تقدم المشروع الصهيوني الاستيطاني العنصري، وإمكانية تطوّر سيناريوهات مختلفة تطرحها تطورات الأمر الواقع، بما يخدم تعميق الاحتلال والاستيطان والعنصرية مع استمرار إنتاج وإعادة إنتاج آليات سيطرة وتحكم خاصة بكل من التجمعات الفلسطينية على جانبي ما يسمى بـ«الخط الأخضر». في المقابل، يترتب على رفض الفلسطينيين التسليم بهذه السيناريوهات في ظل انسداد الأفق أمام سيناريو «حل الدولتين»، التحوّل باتجاه تبنّي مفهوم الصراع المفتوح القائم على الكفاح متعدد الأشكال والأدوات، وفق ظروف مختلف التجمعات الفلسطينية في الوطن والشتات، من أجل إحداث تغيير في ميزان القوى السائد. ويتطلب مفهوم إبقاء الصراع مفتوحاً، التوافق على استراتيجيات كفاحية وسياسية واقتصادية واجتماعية شاملة قادرة على تحقيق الهدف الاستراتيجي للمشروع الوطني، المتمثل في إنهاء الأحتلال والاستيطان والعنصرية وضمان ممارسة الشعب الفلسطيني أيضاً وجد لحقه في تقرير المصير، بصرف النظر عن النتائج التي سوف تترتب على ذلك (دولة مستقلة، دولة واحدة أو ثنائية القومية... إلخ).

> يتطلب مفهوم إبقاء الصراع مفتوحاً، التوافق على استراتيجيات كفاحية شاملة

وطالما ظل الصراع مفتوحاً، ينبغي للمشروع الوطني أن ينطلق في جوهره من طابعه الجمعي المعبّر عن الحقوق التاريخية للشعب الفلسطيني، التي تشكل إطاراً ناظماً لمركائز المصلحة الوطنية العليا (الميثاق الوطني)، وللبرنامج السياسي المتوافق عليه في إطار منظمة التحرير، بعد إعادة بناء وتفعيل مؤسساتها كإطار جبهوي يعتمد مبادئ الانتخابات حيث أمكن، والشراكة السياسية دائماً، بما في ذلك إيجاد آليات لإشراك الفلسطينيين في أراضي 48، عبر مؤسساتهم التمثيلية الوطنية، في عملية صنع القرار الوطني. في هذا السياق، فإن تحقيق المصالحة بما تعنيه من إعادة بناء الوحدة الوطنية بالاستناد إلى «تسوية تاريخية» يتم التوافق على أسسها الموجهة بين التيارات والقوى الوطنية والديمقراطية والعلمانية والإسلامية، التي تقبل بمبدأ الشراكة السياسية، ينبغي أن يندرج في سياق عملية إعادة تعريف القضية الفلسطينية، بصفتها قضية تحرّر وطني تعبر عنها منظمة التحرير كإطار تمثيلي حقيقي يرفع راية تحقيق المشروع الوطني الجمعي.

لكن مثل هذا التحوّل في المنظومة الفكرية الفلسطينية لإطار الصراع (البراديغما)، لن يحدث إلا عندما تقتنع القوى السياسية والنخب الفلسطينية، ومعها قطاعات واسعة من «المجتمع الدولي»، بأن تقلّ الأعباء عن كاهل «المجتمع الدولي»، بأن تقلّ التسوية القائم على أساس «حل الدولتين» عبر مسار التفاوض الثنائي وصل إلى نهايته. وهي عملية لن تتم إلا بشكل تدريجي يلحظ ضرورة توفير متطلبات الانتقال من النقطة التي وقف فيها الفلسطينيون الآن إلى منظومة الصراع الاستعماري الاستيطاني العنصري بتبني استراتيجية بديلة تركز على تجسير الفجوة القائمة بين قيود اللحظة الراهنة ومتطلبات التحرّر منها نحو فضاء استراتيجي جديد. وهذه نقطة البداية كي لا تظل النكبة «مستمرة».

(كاتب فلسطيني/ رام الله)

رأي

الشارع العربي يردّ على النكبة

نور الدين العلوي

يتجدّد رثاء فلسطين في ذكرى النكبة، بما قد يعفي المثقف والسياسي من حكمة التأمل في ضرورات الحرب الطويلة النفس. لكن النكبة لم تكسر ظهر الفتى العربي رغم الألم الطويل. لقد رفع شباب الربيع العربي شعار «الشعب يريد تحرير فلسطين» مع شعارات تحرير أقطارهم من الدكتاتورية. كيف ربطوا بين الحرية في الأقطار والحرية في فلسطين؟ إن رفع هذا الشعار، كان أقوى ردّ على النكبة بعد 65 عاماً. هذا مفتاح فهم حكمة الحرب الطويلة النفس باستيعاب الضربة وتفادي أثرها السلبي ثم النهوض المنقذ.

لم يكن احتلال الأرض إلا قشرة خارجية للاحتلال، فقد اشتغلت ماكيناته على النسيان وبرمجة ذاكرة الفلسطيني أولاً والعربي لاحقاً على نسيان أرضه وقضيته. غير أن هذه الذاكرة استعصت على المسح. إن تغيير مناهج الدراسة في الأرض المحتلة، وتخفيف جرعة الوطنية في برامج المدرسة العربية لم يفلح في جعل فلسطين هامشاً في كتاب قديم.

قد يُجري الفلسطيني مقارناته الخاصة ببقية العرب. لكنه لم يصل بعد إلى المدة الزمنية التي خضعت لها بقية الأقطار للاحتلال ثم قاومت وتحرّرت. يجد في ذلك التاريخ عبرة وقدوة، عندما يتحدث مع الجزائري، فيذكره بطول مدة الاستعمار وعمليات مسح الذاكرة بالفرنسة وقتل اللغة العربية في قلوب الجزائريين. لكن الاستعمار انتهى ولو بعد قرن وثلث القرن. فهل يستسلم الفلسطيني لمسح الذاكرة؟

كل ما فعله الاحتلال هو تذكير الفلسطيني بفلسطينيته. وتذكير العربي بأن القضية ليست فلسطينية بل إنسانية. المخيمات واللجوء، والحروب المتكررة في دول الطوق على اللاجئ الفلسطيني لم تزده إلا رغبة في العودة وإصراراً عليها. أما خطاب التحرّر العربي الذي شحن الآداب والفنون، وتبنته المؤسسات المدنية كالنقابات والجمعيات، فكان دائماً يستجيب بقوة وحماس لتذكير العربي والفلسطيني بقضيته.

يختلف مقدار الإخلاص من شخصية إلى أخرى، ومن بلد إلى آخر. والأنظمة السياسية القائمة منذ النكبة باعت واشترت في الدم الفلسطيني، لكن محرار وطنيتها - ولو نفاقاً - كان يظهر في إعلان تعاطفها مع القضية. لقد غفرت صواريخ صدام، على الأرض المحتلة، قبيحته الغاشمة على العراق. واستجدت عائلة الأسد شرعيتها منذ وجودها بادعاء المانعة. أما الملك السعودي الوحيد المحبوب، فهو الذي وضع النفط سلاحاً في معركة التحرير.

ظلت فلسطين مقياس الوطنية والانتماء، وفشل العدو في معركة الذاكرة، لذلك كله ظلت تربك الراغبين في مسحها. فلما انفجر الربيع العربي امتزجت مطالب الحرية في الأقطار بواجب تحرير فلسطين، بل طغى شعار «تحرير فلسطين» في لحظة معينة، على بقية الشعارات، وانطلقت القوافل من كل مكان إلى غزة عبر الفجوة الوحيدة واليتيمة في تاريخ المنطقة التي فتحها المصريون تحت حكم مرسي، فمرّ المتضامنون حجيجاً إلى غزة. لا يتعلق الأمر بقياس مقادير التضامن وترتيب المتضامنين، ولكنّ رفع شعار «الشعب يريد تحرير فلسطين»، كشف أن معركة الذاكرة انتهت لصالح الفلسطيني، وأن معركة التحرير الطويلة تجري لصالح الأجيال التي تتربى على ضرورة التحرير، وأن خطاب التسويات، وإن تبنته شريحة فلسطينية وعملت عليه ضمن الحد الأدنى العيشي تحت ظروف الحصار الدولي وتفكيك احتمالات الثورة العربية لن يمر.

لقد بث خطاب التسوية الكثير من الإحباط وجعل مقولات «ليس بالإمكان أفضل مما هو متاح» تغلب على خطاب المهرولين إلى إنهاء المعركة على الأرض، لكنهم، وهم يهرولون إلى أحضان عدوهم يغفلون أن الذاكرة الفلسطينية خصوصاً والعربية عموماً حية ومتوترة تتصيّد فرص التعبير عن نفسها في مظاهرة أو قافلة تضامن أو في شعار يتخلل الاحتفالات المدرسية.

لقد خسر العدو معركة الرموز والمعاني، حتى صار كل اقتراب منه عاراً ومذلة. إنه العدو وإن تبسّط المهرولون معه في الحديث.

وفي حرب الذاكرة والبقاء، تظل فلسطين تصنع الأبطال، تقوم من النكبة على التحرير، وتصلب عودها بذاكرة لا تلين. وقد رفدها الشباب العربي بأمل لا ينثني، فالشعب منذ 1948 يريد تحرير فلسطين.

(كاتب وأستاذ علم اجتماع من تونس)

استرجاع

من مسيرة العودة إلى إحياء النكبتين في سورية

هكذا اختبر الفلسطينيون نكبةً جديدة في مكان لجوئهم تضاف الى نكبتهم التاريخية، لكنها هذه المرة الأشدّ إذ يواجَهون بحالة إنكار مريعة لعذاباتهم ومعاناتهم، ولا يجدون الاحتضان والتعاطف الذي عرفوه إبان تشردهم الاول

سلام السعدي

في العام 2011 أحيا اللاجئون الفلسطينيون في سورية الذكرى الـ63 للنكبة بطريقة غير مسبوقة، وذلك باجتيازهم خطّ وقف إطلاق النار مع إسرائيل. ففي موقع «عين التينة» الحدودي في محافظة القنيطرة السورية، تجمع الآف الشبان الفلسطينيين لإحياء ذكرى النكبة. وعلى غير العادة، حاول المئات منهم اجتياز حقول الألغام والأسلاك الشائكة، في مشهد استثنائي لم تعرفه المنطقة منذ العام 1967. المفاجئة الأهم تمثلت بتمكن أكثر من مئة شاب فلسطيني الوصول إلى بلدة مجدل شمس في الجولان السوري المحتل.

كان الحدث فريداً بكل معنى الكلمة. فمن جهة، كانت المرة الأولى التي يحيي فيها الفلسطينيون في سورية ذكرى النكبة بالاشتباك مع قوات الاحتلال الإسرائيلي واجتياز الحدود في تطبيق فعلي وصريح لحقهم في العودة بعد أن كان نشاطهم سنوياً يقتصر على المهرجانات والمؤتمرات الحزبية الباهتة والمكررة. أما من جهة النظام السوري، فكانت المرة الأولى التي يسمح فيها بالاقتراب من حدود الجولان المحتل وتخطيها. كان نظام الأسد في تلك الأثناء يواجه ثورة شعبية بدأت قبل نحو شهرين في درعا لكنها توسعت بوتيرة سريعة لدرجة أن النظام السوري اضطر قبل ذكرى النكبة بأيام لبدء حملة عسكرية في كل من حمص وبانياس بالإضافة للحملة العسكرية في مدينة درعا. ضمن هذه الأجواء، سمح نظام الأسد لمئات الفلسطينيين بالاشتباك على الحدود مع الجيش الإسرائيلي.

يعتقد الباحث والكاتب الفلسطيني ماجد كيالي في حديث لـ«العربي الجديد» أن الدعوة لإحياء ذكرى النكبة بتلك الطريقة، كانت «فلسطينية خالصة، وفي سياق استنهاض الحالة الوطنية». ويفضل التمييز بين «تلك الدعوة الصادقة من جهة، ومحاولة النظام والفصائل المدعومة منه تبنيها لاحقاً لاستثمارها سياسيا وحرفها عن مسارها من جهة أخرى».

ولا يشك كيالي في أن «الثورة السورية جعلت النظام يرضخ لمطلب ذهاب الشباب إلى الجولان، وهي منطقة محظورة. وهو الذي كان يمنع حتى المظاهرات الرمزية في المخيمات بمناسبة يوم الأرض، بل إن إنشاء نادي رياضي أو إقامة معرض فن تشكيلي أو ندوة شعرية كانت تحتاج إلى إذن من الضابطة الفدائية والجهات الأمنية المختصة».

ولكن، بالنسبة للفلسطينيين، وبعيداً عن حسابات النظام السوري، كان لإحياء ذكرى النكبة بهذه الطريقة أثر ايجابي واضح. وقد أظهر تقرير أعدّه «المركز العربي للحريات الإعلامية والتنمية والبحوث» أن الكم الأكبر من المقالات والأخبار المتعلقة بالنكبة نشرت في العام 2011 حين اجتاز الفلسطينيون في سورية الحدود مع إسرائيل خلال إحيائهم لذكرى النكبة، ويخلص التقرير إلى ما مفاده أن «إحياء ذكرى النكبة بطرق مبتكرة وغير مألوفة له أثر كبير على الجمهور والإعلام الإسرائيلي».

والحال أن مخاطبة الرأي العام الإسرائيلي ليست هي ما حفزت فلسطيني سورية على إحياء ذكرى النكبة بتلك الطريقة، وإنما تحويل حدث إحياء ذكرى نكبتهم إلى ما يشبه «الانتفاضة على أسبابها، أي على الدولة الصهيونية» يقول معن محمد الفلسطيني السوري الذي اندفع لتخطي الحدود في ذلك اليوم «العظيم» كما يصفه.

وجد النظام السوري في ما حدث مثالياً من أجل توجيه بعض الرسائل إلى «إسرائيل» و«المجتمع الدولي»، فدفع باتجاه تكرار الحدث من جديد بعد أقل من شهر، وهذه المرة في ذكرى النكسة بتاريخ الخامس من حزيران/ يونيو 2011. في المرة الأولى، لم يكن الإسرائيليون قد استعدوا جيداً، وكان لديهم الثقة الكاملة، التي تراكمت خلال عقود مع النظام السوري، في أن هذا الأخير هو حامي الحدود، وهو من تطوع دوماً لقتل كل من يحاول التقدم شبراً واحداً باتجاه الجولان قبل أن يضطروا هم للتحرك. لكن دولة الاحتلال استخلصت الدرس مما حدث فيما سبق، وأدركت لعبة النظام السوري، تسفكها إسرائيل لكي تغطي على دماء السوريين التي كان النظام يسفكها في شوارع درعا وحمص وبانياس في ذلك الوقت. أما الفصائل الفلسطينية فكانت هي الأخرى بحاجة لتلك الدماء لكي تستر خمولها، وتملأ فراغات الشرعية المتآكلة».

يقول محمد ويشرح حالة الانقسام في صفوف الفلسطينيين: «كان موقفاً صعباً، فمن جهة ندرك أن محاولة اختراق الحدود والعودة كلاجئين بشكل سلمي هي أسلوب المقاومة الأمثل، خصوصاً وأن الأنظمة العربية كانت تحرمنا دوماً من ممارسة هذا الحق بحمايتها حدود الكيان الصهيوني، وهاهي الفرصة تتاح لنا». لكن وبالمقابل، «كأن واضحاً أن النظام السوري يريد الشرعية بدمائنا، وكان من الممكن أن نستجلب عداء السوريين بسبب ذلك. في وقتٍ كنا مقتنعين تماماً بأن الشعب السوري الثائر هو نصير قضيتنا، وليس النظام. بهذه المعنى كان دعم ثورة السوريين وعدم إعطاء أي شرعية للنظام وعدم التغطية على دمائهم هو دعم لقضيتنا أيضاً».

لكن، ورغم محاولات الناشطين والضغط من قبل أهالي المخيم لإيقاف النشاط حدث النشاط بطريقة «مشبوهة» كما يقول السهلي وذلك «بتواطؤ بين شخصيات فلسطينية مقربة من النظام وحزب الله (ياسر قشلق) وفصائل فلسطينية كتنظيم أحمد جبريل وبعض الشخصيات من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين». كانت النتيجة استشهاد نحو 23 فلسطينياً في ذلك اليوم وإصابة نحو 400 آخرين بأعيرة نارية مباشرة.

أعاد إحياء ذكرى النكبة بهذه الطريقة البطولية والاستثنائية التأكيد على الطاقات الكامنة الكبيرة في صفوف اللاجئين الفلسطينيين في دول الشتات، وأظهر توقهم للحراك السياسي والميداني. لكنه سلط الضوء من جديد على دور الأنظمة العربية التي تعمل على تدجين تلك الطاقات واستغلالها بما يناسب مصالحها. وهو ما يعزز اعتقاد الكاتب ماجد كيالي بأن «للنكبة الفلسطينية وجهان، وجه أول يتعلق بقيام إسرائيل على حساب الشعب الفلسطيني والذي نجم عنه تشريدهم من أرضهم ومن وطنهم، ووجه ثان يتعلق بالأنظمة التي سهلت قيامها بتقييدها قدرات الفلسطينيين، وتحويلهم إلى مجرد لاجئين، لا حقوق لهم، ولا حول ولا قوة».

كما كانت تلك المجزرة التي ارتبطت بصورة أو بأخرى بأحداث الثورة السورية مجرد بداية لسلسلة من المجازر التي سوف تمر على فلسطينيي سورية، ولحصار وحشي وطويل من قبل النظام السوري والفصائل الفلسطينية الحليفة له لمخيم اليرموك في جنوب العاصمة دمشق بعد تهجير الغالبية الساحقة من سكانه.

هكذا اختبر الفلسطينيون نكبةً جديدة في مكان لجوئهم تضاف إلى نكبتهم التاريخية، لكنها هذه المرة «أشد وأقسى» كما يصف كيالي حيث يواجهون «حالة إنكار مريعة لعذاباتهم ومعاناتهم، ولا يجدون الاحتضان والتعاطف الذي لقيه الفلسطينيون إبان تشردهم». ومع ذلك، يمكن أن نعثر على نحو 20 ألف فلسطيني بقوا متشبثين بمخيمهم ومحاصرين في داخله حتى اليوم، منذ ثلاثة أعوام، ويثابرون رغم كل شيء على إحياء ذكرى النكبتين: نكبة العام 1948 على يد العصابات الصهيونية، ونكبة العام 2012 على يد النظام السوري.

(كاتب فلسطيني سوري/ كندا)

«إعادة تدوير الصبر» (2015)

> دور جديد قديم للأنظمة في استغلال الطاقات بما يناسب مصالحها

فتهيأت لعملية قتل واسعة لا تتردد خلالها في إطلاق النار على كل من يقترب من الحدود.

من هنا وقف عدد من الناشطين الفلسطينيين ضد تلك الدعوات وذلك انطلاقاً من الرغبة في «الحفاظ على أرواح الشبان والشابات، أبناء فلسطين، من مشروع كان واضحاً حينها لغالبية أبناء المخيم، مع الأخذ بعين الاعتبار ما كان يدور في الأزقة والأحياء المجاورة للمخيم، من مظاهرات سلمية تنادي بإسقاط النظام في سورية» يقول الصحفي والناشط الفلسطيني السوري ثائر السهلي لـ«العربي الجديد». ويضيف السهلي: «كانت أرواح مئات وربما الآف الشبان ستزهق دون جدوى، إذ أن معظم من احتشد في الزحف الثاني كانوا من الفتية الصغار غير المدربين، وكانت رغبة النظام السوري والفصائل الفلسطينية الحليفة له باستثمار دفقة النصر المعنوي الذي حققه اللاجئون في ذكرى النكبة من ذلك العام واضحة، كما كان التلفزيون الرسمي السوري ومعظم وسائل الإعلام الحليفة ترقع من منسوب الحماسة، الذي كان سيصرف عند الحدود انهاراً من الدماء الفلسطينية». ويخلص السهلي إلى أن النظام السوري أراد «إحراج إسرائيل بدماء الفلسطينيين، هذا كل ما في الأمر».

وفضلاً عن مسألة «الإحراج»، يضيف محمد «الحاجة الملحة لدماء فلسطينية أفشل المحاولة، وأعاد إنتاج التخلف، وهنا بات التخلف التاريخي الذي كان نتيجة أسبقية تطور أوروبا تخليفاً بفعل القوة الإمبريالية. فالسيطرة الاستعمارية كانت تعيد إنتاج التخلف، وتعمّق فيه، و«تُطوِّر» ما يناسب سيطرتها فقط. ولقد انتهى الاستعمار بحصول الدول العربية على الاستقلال قبيل النكبة بقليل (سورية ولبنان) أو بعد ذلك (مصر، العراق، فقط مع إزالة النظم الملكية).

فرض التخلّف بالقوة

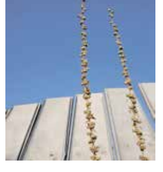

يمكن النظر إلى النكبة باعتبارها حاصل جميع ما سبقها. وبالتالي فهي خاتمة النكبة التي بدأت بالسيطرة الاستعمارية، وهي نتاجها. رغم كل الحديث الممكن عن التخلف الذي يلفّ البنى المجتمعية والوعي والأحزاب وغير ذلك. حيث لا يمكن فهم هذا التخلف بـ «ذاته»، أو نتيجة المجتمع فقط، فقد حاول المجتمع تحقيق التطور والحداثة لكن أسبقية الرأسمالية والتفوق الذي باتت تتمتع به

معادلة

نهاية مشروع مؤقت

مطالبات «إسرائيل» تعني، في الجوهر، إقراراً صريحاً بأن مصيرها بات مرهوناً بإرادة الضحية

صقر أبو فخر

لم يكن لإسرائيل أي وجود مادي أو قانوني أو تاريخي حتى سنة 1947. لكن، في تلك السنة بالتحديد، قام اليهود المهاجرون ممّن لا يحملون جنسية البلاد بحمل السلاح، واستولوا على مساحات كبيرة من فلسطين، وأعلنوا في 14 مايو/ أيار 1948 قيام «دولة إسرائيل» بدعم مكشوف من الولايات المتحدة الأميركية وبريطانيا والأمم المتحدة التي أمدتهم بقرار التقسيم رقم 181 الصادر في 29 نوفمبر/ تشرين الأول 1948، ولم يلبثوا أن استولوا على أراضٍ جديدة وطردوا منها أهلها العرب الذين بلغ عددهم 850 ألفاً على الأقل.

هكذا نشأت قضية فلسطين. إنها نتيجة مباشرة للصراع الدموي بين السكان الأصليين لفلسطين والحركة الصهيونية التي تظل، في نهاية المطاف، حركة كولونيالية احتلالية تمارس الاستيلاء على الأرض كعملية من عمليات «بناء الأمة الإسرائيلية ودولتها القومية».

في مواجهة السكان الأصليين، يستعمل الاستعمار الكولونيالي استراتيجيات الإبادة أو الترحيل. والإبادة لم تكن ممكنة على الاطلاق في سنة 1948، فاقتصر الأمر على الترحيل الذي لم يتمكن، بدوره، من القضاء على وجود الفلسطينيين الذين ما إن أعادوا تنظيم شتاتهم في بلدان اللجوء العربية المحيطة بفلسطين حتى بادروا إلى الكفاح المسلح لاستعادة بلادهم.

وعلاوة على ذلك، فقد كان التشبث بالأرض والبقاء في المكان وحلم العودة، المعجزة الفلسطينية الحقيقية التي جسدت التذكير اليومي للجميع بأن الشعب الفلسطيني لم يُهزَم، بل إنه ما برح منذ سبعة وستين عاماً يصنع القلق التاريخي، بل الخطر الحقيقي على دولة إسرائيل؛ فالفلسطينيون كالعشب جُزَّ نبت مجدداً.

■ ■ ■

فَشل «الترانسفير الإسرائيلي» في إفناء الشعب الفلسطيني أو محو إرادته أو ردعه لأن الفلسطينيين، بكل بساطة، لم يرتدعوا، بل قاتلوا إسرائيل في البداية من البر، أي عبر الحدود العربية، ثم خرجوا عليها من البحر، وهبطوا إليها من الجو، ثم اكتشفوا القتال عبر الأنفاق تحت الأرض، وهم يبتدعون في كل يوم وسائل.

من غير الواضح تماماً هل تعلّم الإسرائيليون الأمثولة جيداً، أي أن الفلسطينيين مثل كبس الملاكمة، كلما وجّه الإسرائيليون اللكمات إليه، ارتد عليهم بالقوة نفسها. وعلى الرغم من ذلك، وصلت الأحوال بعد سبعة وستين عاماً على النكبة، وبعد خمسين عاماً من الكفاح المسلح إلى عجزين: عجز الإسرائيليين عن إطفاء جمرة العودة والتحرير لدى الفلسطينيين، وعجز الفلسطينيين أنفسهم عن تحرير وطنهم والعودة إليه.

وهذا العجز المزدوج ولّد، في مرحلة ما بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، إمكانية للتسوية بين الطرفين، فجاء اتفاق أوسلو في 13أيلول / سبتمبر 1993 كمحاولة عملية للاتفاق على تسوية ما. لكن، حتى هذا الاتفاق فشل تماماً، لأن إسرائيل لا يهمها السلام في حد ذاته، بل ما يهمها حقاً هو أن تبقى دولة يهودية وقوية معاً.

> في مواجهة السكان الأصليين، يستعمل الاستعمار استراتيجيات الإبادة او الترحيل

قضية فلسطين عالقة اليوم في استعصاء متعدد الحلقات، وإسرائيل نفسها في مشكلة مستعصية، فهي غير قادرة على ضم الأراضي المحتلة في سنة 1967 بسكانها، وغير قادرة على الانسحاب منها كلها. وما تعرضه من حلول يرفضه الفلسطينيون، وما يريده الفلسطينيون لا يمكن أن تقبل به إسرائيل. وهذا الاستعصاء يرنّ في الذاكرة الجمعية الإسرائيلية في صورة كارثة، فالكوارث شكلت، كما هو معروف، جزءاً من هوية اليهودي: كارثة الخروج من مصر، وكارثة التيه في سيناء، وكارثة تدمير المملكة القديمة، وكارثة الشتات، والكارثة النازية. وكثير من يهود اسرائيل يعيش اليوم كارثة الخراب المقبل؛ فبعضهم يعتقد أن إسرائيل لن تبقى موجودة في المستقبل. ويتساءل كثيرون هل إن اسرائيل مشروع موقت غير قابل للحياة مثل الاتحاد السوفياتي او الجزائر الفرنسية او يوغوسلافيا؟

■ ■ ■

يطالب الإسرائيليون الفلسطينيين بالاعتراف بإسرائيل دولة للشعب اليهودي. وهذا يعني أن إسرائيل تريد أن يوقع الفلسطينيون وثيقة استسلامهم بأيديهم، بل اعتناق الصهيونية. لكن هذه المطالبة تعني، في الجوهر، إقراراً صريحاً بأن مصير إسرائيل مرهون بإرادة الضحية، وأن الجبروت الإسرائيلي طوال سبعة وستين عاماً ما عاد نافعاً، وأن مستقبل اليهود في فلسطين لا يمكن ضمانه إذا لم تُحل قضية فلسطين حلاً يرضي الفلسطينيين أنفسهم. وعلى صورة هذا الحل الغائب وتفصيلاته ومضمونه يستمر الصراع الفلسطيني – الإسرائيلي في الاشتعال.

وفي النهاية، لا تُبقي إلا حجارة الوادي. أما الحجارة فهي للفلسطينيين، وأما الوادي فهو فلسطين.

(كاتب وباحث فلسطيني/ بيروت)

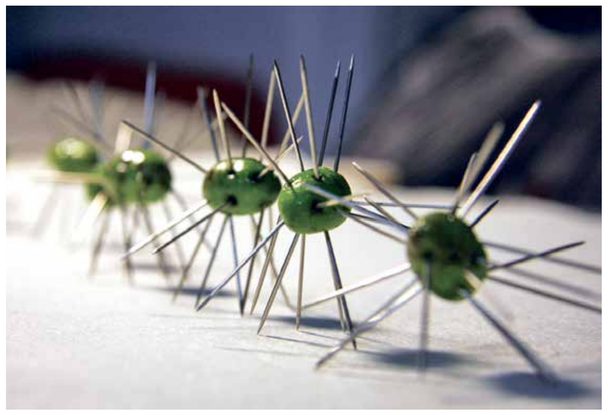
«موسم الزيتون» (2011)

مسار

النكبة مجدداً

لقد كانت لحظة النكبة خاتمة النكبة التي كانت قد بدأت بالسيطرة الاستعمارية، وهي نتاجها، رغم كل الحديث الممكن عن التخلف الذي يلفّ البنى المجتمعية والوعي والأحزاب

سلامة كيلة

النكبة خلقت حافزاً لتغيير كبير في كل الوطن العربي، رغم أن الظروف الاقتصادية والاجتماعية كانت تفجّر الصراع حينها، لكن الهزيمة ونشوء الدولة الصهيونية كان صدمة أسهمت في تحولات طالت المنطقة، كانت فلسطين عنوانها. لهذا ارتبطت كلّ التغيرات التي حدثت بعدئذ باسم فلسطين رغم امتلاكها جذوراً مجتمعية عميقة. فالثورات التي حدثت كانت تلامس قضية فلسطين رغم أنها أحدثت تغيرات مجتمعية عميقة، ورغم أن الجيوش التي بنتها كانت بهدف «الإعداد لمعركة التحرير».

لكن فلسطين لم تُحرر إلى الآن. على العكس فقد فقدنا الجزء المتبقي منها سنة 1967، فيما سُمي بهزيمة حزيران. ومن ثم فقدنا النظم التي انبهضت وهي ترفع شعار «تحرير فلسطين». واصبح القبول بالأمر الواقع هو السياسة «العقلانية». وسيطر المنطق الذي يقول القبول بالدولة الصهيونية والتعايش معها، وحتى التحالف معها. بهذا ظهر أن فلسطين ضاعت، وأن الحلم بتحريرها قد تلاشى، وأن الواقع العربي الذي جرى ترتيبه بهدوء منذ سنة 1970، سنة موت جمال عبد الناصر، سار في مسار التكيّف مع الوجود الصهيوني في ظل السيطرة الإمبريالية الأميركية. ليبدو أن النكبة قد اكتملت، فقد انهارت المحاولة التي كانت النكبة جزءاً من نشوئها، وكان هدف الرد على النكبة جزءاً من طموحها.

حين العودة إلى لحظة النكبة نلمس بأنها كانت نتاج «واقع موضوعي»، لكنه في ذات الوقت واقع مفروض بقوة الدول الإمبريالية التي استعمرت المنطقة بعد الحرب العالمية الأولى، وقسّمتها إلى دول مستعمَرة، وفرضت تشكّل بنيتها الاقتصادية وتكوينها السياسي، وواجهت كل القوى والطبقات، التي ناضلت من أجل الاستقلال والتحرر ومواجهة المشروع الإمبريالي بحديه: التقسيم وإقامة كيان «يهودي» في فلسطين. وكانت إقامة الدولة الصهيونية هي «العنصر الأخير» في تشكيل المنطقة لضمان السيطرة عليها، حين تقدمت أميركا لتقود الدول الإمبريالية وتكرّس وجود هذه الدولة. بالتالي كانت هذه الخطوة هي قمة السيطرة على الوطن العربي لضمان بقائه مفككاً ومتخلفاً، ومجال نهب واستغلال، حتى بعد أن انتهى الاستعمار.

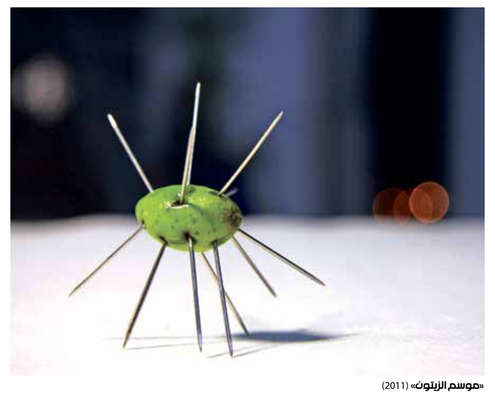
«موسم الزيتون» (2011)

كانت النكبة نتاج أزمة المشروع النهضوي التحرري العربي، الذي فشلت احزابه في مقاومة جدية للاستعمار عبر استراتيجية تؤدي إلى التحرير، وبالتالي لم تستطع منع النكبة. فقد كانت القوى البرجوازية منها تراوح في مواقفها بين مقاومة الاستعمار والتفاوض معه، حيث كانت الطبقة التي تعبّر عنها هذه القوى تتكيف مع الشبكة التي تؤسسها الرأسمالية الإمبريالية، وتنحو إلى التشبيك معها، بدل أن تواجهها من أجل الاستحواذ على السوق القومي وتطوير الصناعة المحلية، فالمنافسة في سوق مفتوح كان صعبة نتيجة تفوق الرأسمالية مالياً وتقنياً ومقدرة، لهذا مالت إلى النشاط فيما لا يؤدي إلى التنافس، فعملت في التجارة والخدمات والبنوك. وهو الأمر الذي كان يجعلها تتخلى عن كل ميل لتحقيق الاستقلال والتطور الصناعي والحداثة، والقبول بالشروط التي تطرحها الرأسمالية. وكانت هذه القوى في زعامة الحركة الوطنية، لهذا ظلت تميل إلى التفاوض من أجل الاستقلال السياسي مع تلاشي مشروع النهضة التي طرحته بداية، أو كان مطروحاً للتعبير عنها قبلاً.

إصلاحية جعلت «المخطط الاستعماري» ينجح، وأن تبقى الحركات المناهضة للاستعمار «شعبية» بقدرات محدودة، وبدون تصورات واضحة، وبالتالي سهلة المواجهة من قبل الدول الاستعمارية. وإذا كان الشيوعيون حينها هم من قاد الثورات في الصين والهند الصينية وانتصروا، فإن الشيوعيين العرب، الذين حاولوا ذلك في السنوات الأولى من نشوء الأحزاب الشيوعية تحقيق ذلك، ووفق المنظور ذاته، قد تحوّلوا بفعل التأثير السوفيتي إلى المراهنة على «إرتقاء التاريخ» في مسار يفرض انتصار البرجوازية، فنشطوا، منذ سنة1937، في إطار سياسة تقوم على التحالف مع البرجوازية ودعم انتصارها، مما جعلهم من جهة يحصرون نشاطهم فيما هو نقابي مطلبي، ومن جهة أخرى فيما هو «ديمقراطي» مبتعدين عن تحويل أزمة العمال والفلاحين الفقراء إلى صراع طبقي حقيقي، وسائرين من أجل انتصارهم. وبهذا لم يتقدموا لكي يحملوا إرث النهضة والتطور والحداثة تاركين الصراع الطبقي في أزمة في اللحظة التي كان بتفاقم فيها نتيجة اتساع الفقر والتهميش، وعلى ضوء بدء انسحاب الاستعمار مما كان يُظهر هشاشة النظم.

> النكبة هي نتاج أزمة المشروع النهضوي التحرري العربي وفشل احزابه

ولقد ظهر أن سياستها كانت قد خضعت للسياسة السوفيتية، وبالتالي انقلبت من مواجهة المشروع الصهيوني وإقامة دولة ديمقراطية علمانية إلى الاعتراف بالدولة الصهيونية الوليدة مباشرة بعد قبول الاتحاد السوفيتي بقرار تقسيم فلسطين، الذي تلاه اعترافه بالدولة الصهيونية. وبهذا كانت تكرس النكبة وتقرّ بنتائجها متخلية عن 80% من فلسطين تحت عنوان: الأمر الواقع، لكن في الواقع تحت تأثير الاتحاد السوفيتي الذي كان في اتفاق يالطا قد وافق على تقسيم العالم بعد الحرب العالمية الثانية، وبضمن ذلك الموافقة على حصة بريطانيا وفرنسا في المشرق العربي وعلى الدولة الصهيونية.

على ضوء ذلك كانت هذه الأحزاب تخرج من إطار الصراع الحقيقي مركزة على ما هو «مجزّء» (صراع إمبريالية/ اشتراكية، وصراع إمبريالية/ حركات تحرر)، أو على قضايا مطلبية و«نضال ديمقراطي»، وكذلك من أجل «السلام».

النكبة بالتالي هي نتاج تصوّر إمبريالي جرى فرْضه بقوة السيطرة الإمبريالية، لكن مع إصلاحية و«سلمية» وتشوش أحزاب كان عليها تغيير نظمها ومواجهة السيطرة الإمبريالية الصهيونية. والنكبة تكرّست مع فشل محاولة التطور التي تبعتها، حيث استطاعت الإمبريالية الأميركية «ترتيب» النظم تحت سيطرتها. لكن ذلك كان يؤسس لثورات جديدة، هي ما شهدناه منذ نهاية سنة 2010، ولا زال مستمراً.

(كاتب فلسطيني/ القاهرة)

وقفة

يافا الوجه النضر للنكبة

محمود أبو عريشة

في زيارتك الأولى ليافا، إن أتيتها فارغاً من الوزر التاريخي والسياسي الذي تحمله، لن تلحظ أن هذه المدينة العربية التاريخية، التي تستلقي بوداعة على دنوّ من البحر، بشطآنها الخلّابة؛ بيوتها المنخفضة، شبابيكها المقوّسة وسمائها الكبيرة، هي مدينة منكوبة ومحطّمة تعرّضت للتدمير والتهجير القسري قبل عقود قليلة. لن تكتشف على الفور أن المشى الخلاب الذي يأخذك من حدود يافا الشمالية إلى فنادق تل أبيب الجذابة، هي عملياً حارة المنشية المدمرة، إحدى أكبر حارات يافا خارج السور، والتي هدمت كلياً في الستينيات وأبقي فيها على مبان قليلة من بينها؛ مسجد حسن بك. ولن تكتشف كذلك أن ما يسمى «بارك العجمي» هذه الحديقة الضخمة بهضابها الخضر والتي تمتد من جنوب الميناء وحتى شاطئ الشباب في أقصى الجنوب، هي عملياً «الطَّم»؛ جبال من بقايا بيوت يافا المدمّرة والتي كدّست لأعوام طويلة في تلك المنطقة حتى قررت «بلدية تل أبيب» استصلاح الأرض بما يليق بحي سياحي في المدينة الكبيرة، فخضّبتها وجعلت من المأساة خضراء، إلى درجة موجعة.

لم تختر يافا الحياة بعد النكبة بل تعرّضت للإنعاش القسري. كما فرض عمق المأساة الحياة على أبنائها العرب. لقد أرسلت إسرائيل رافعاتها لإعمار المدينة المنكوبة بعد النكبة بغية أسرلتها وتهويدها وشيّدت في المقابل مدارس حكومية لصياغة عربي إسرائيلي منزوع من تاريخه ومعزول عن امتداده العربي، لكن النتيجة لم تكن تماماً ما رجتها. ففي مقابل الحارات الجديدة التي شيدتها، والأبنية التي هودتها، والشوارع التي أعادت تسميتها بأسماء عبرية وصهيونية، فشلت إسرائيل في تحقيق رجائها في إخضاع اليافاوي، بل يمكن القول أن اليافاوي نجح بدوره عبر السنين بتجاوز حادثة الهزيمة، وتمكين نفسه من جديد بتعزيز قدرته على المقاومة والنضال، تجاوزاً لا تخاذلاً أو نسياناً.

يعيش اليافاوي في حالة صراع دائم لم يتوقف منذ النكبة، صراع بقاء أمام التّبرجز المتمثل بزحف الأغنياء اليهود إلى يافا، صراع الفقير البسيط في مدينة هي الأكثر غلاءً في «الشرق الأوسط»، وكذلك في مقاومة العنصرية كأقلية صغيرة جداً في وسط يهودي شبه مطلق حيث لم تعد تتجاوز نسبة الفلسطينيين في «مركز إسرائيل» واحداً بالمئة. كلّها صراعات على أساس وطني في مقاومة النكبة التي لا زالت إسرائيل تحاول إطباقها على الوجود الفلسطيني. مُركبّة الحياة في يافا تبيّن بوضوح أنّ النكبة هي مشروع مستمر لم يقتصر فقط على الاحتلال والتهجير الكبير الذي حدث عام 1948.

من المشاهد التي لا تغيب عن المخيلة، التظاهرات اليومية التي شهدتها يافا ابتداءً من العام 2012 مناصرةً للأسرى الفلسطينيين المضربين عن الطعام، من خضر عدنان وانتهاءً بسامر العيساوي، ثم الاحتجاجات الصاخبة وإغلاق الشوارع بغرض إسقاط «مخطط برافر» الاقتلاعي، فالاحتجاجات الشعبية داخل حارات العجمي نصرةً لغزة في العام 2014.

هذه التظاهرات التي تجاوزت المائة في فترة قصيرة وتمركزت في دوّار الساعة شمال يافا، جرّت وراءها مئات المتظاهرين، وسجلت يافا مركزاً آخر للحراك الوطني في الداخل الفلسطيني إلى جانب المثلث الجليل والنقب، كما أنها أعلنت رسمياً وفاة مشروع إعادة تدوير اليافاوي وإنتاج العربي الإسرائيلي الجديد. يمكن القول إن أبناء يافا العرب يعون اليوم بشكل أو بآخر هويتهم الوطنية ويعملون على مقاومة نكبتهم المستمرة. يكاد صوت ابن النكبة فخري جداي وصيدلاني يافا الأول لا يفارقني حين قابلته شهور قليلة قبل وفاته وقال: «يافا قبل الـ 48 كانت جنة. هدي أيام العزّ، أيام العز في يافا».

(كاتب فلسطيني/ يافا)

العربي الجديد
ملحق فلسطين
الأحد 17 مايو / أيار 2015 م 28 رجب 1436 هـ
العدد 3 السنة الأولى
Sunday 17th May 2015

ذاكرة

حين وقعت نكبة فلسطين، كان سابا جورج شبر في الخامسة والعشرين. المعماري الشاب الذي يعتبر أول مخطط مدن عربي معاصر ترك سؤالاً حضارياً هو في القلب من فكرة تجاوز النكبة

سابا جورج شبر(السادس إلى اليمين) في لقاء جمعية المعماريين والمهندسين العرب في القدس، امام كنيسة المهد، بيت لحم 1947

مُصحِّح مسارات المدينة العربية

محمد الأسعد

من لقطةٍ بعدسة تصوير فوتوغرافية بسيطة، تلحظ العينُ عدداً من الأشخاص في نصف دائرة، مجلس إدارة جمعية المعماريين والمهندسين العرب في القدس أمام كنيسة المهد في بيت لحم، والتاريخ هو عام 1947. لم يذكر واضع كتاب «قبل شتاتهم» وهو يدرج هذه الصورة بين الصور الأخرى، سوى اسم مهندس معماري واحد من هؤلاء، السادس من اليمين، د. سابا جورج شبر (1923-1968)، العامل في دائرة الأوقاف الإسلامية. كان هذا بعد حصوله على شهادة البكالوريوس الثانية من جامعة القاهرة في عام 1946، وإعداده لرحلة دراسية طويلة ستأخذه إلى جامعة ماساتشوستس في أميركا للحصول على درجة ماجستير في العمارة في عام 1948، ثم إلى جامعة كورنيل ليحصل على درجة دكتوراه في تخطيط المدن والتخطيط الإقليمي.

إذاً، من هذه اللقطة الفوتوغرافية خرج إلى العالم الفلسطينيُّ الذي سيشهد على مدن عصره، معماراً وهندسة وتنظيماً، وسيكون أول مخطط مدن في الوطن العربي قبل أن يقضي أربع سنوات في الولايات المتحدة في مجال التخطيط والتعليم في جامعاتها. ولعل أكثر جوانب شهادته تأثيراً كانت تلك التي تناولت بعين نقدية حاذقة مصائر التحديث الذي اندفع إليه نشاط عمراني كبير اجتاح الوطن العربي لامست معظم مدنه في خمسينيات وستينيات القرن الماضي، فلاحظ انعدام توفر الأسس التنظيمية السليمة في بعض الحالات، كما في حالة بيروت، وحذر من انحدار مدن عربية أخرى مثل الكويت إلى المنزلق ذاته، وعنى بذلك تبني أنماط معمارية لا تأخذ بعين الاعتبار عنصر الجغرافية، بما في ذلك المناخ، وطبيعة الموقع، والفلسفة المعمارية الأدق من العنصرين السابقين، تلك المتصلة بالنواحي الاجتماعية والمعنوية والجمالية أكثر من اتصالها بالنواحي المادية الملموسة، وأخيراً عنصر الحياة الاجتماعية الذي يتناول خصائص ومميزات وعادات البيئة.

لم يشهد سابا خلال حياته القصيرة (45 سنة) على عصره فقط، بل قدم شهادة على عصور عربية مضت، فكشف عن الجذور الحية النابضة، وحاول قدر الاستطاعة، وسط اجتياح الغباء والجهل والنهم المالي، تصور وتشكيل مدن عربية إنسانية مدركاً أن للعمارة دوراً فاعلاً في تشكيل الإنسان ذاته.

شبر بريشة رسام الكاريكاتير اللبناني الأرمني ديران عجيمان، 1962

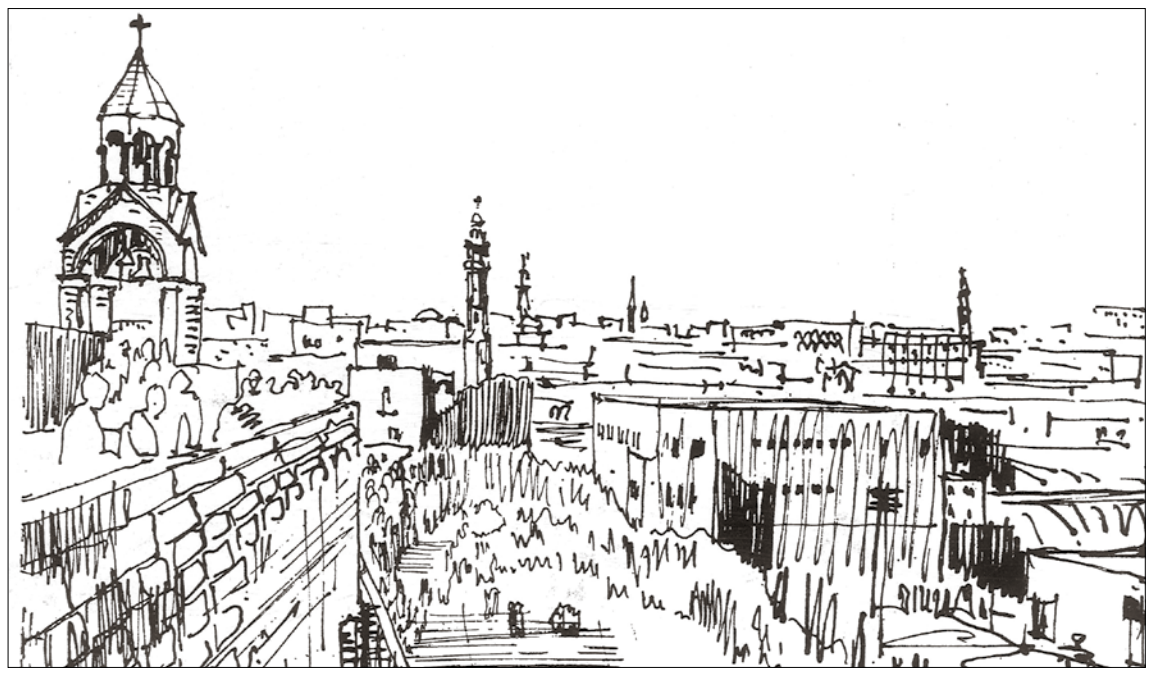

من رسوماته لبيت لحم

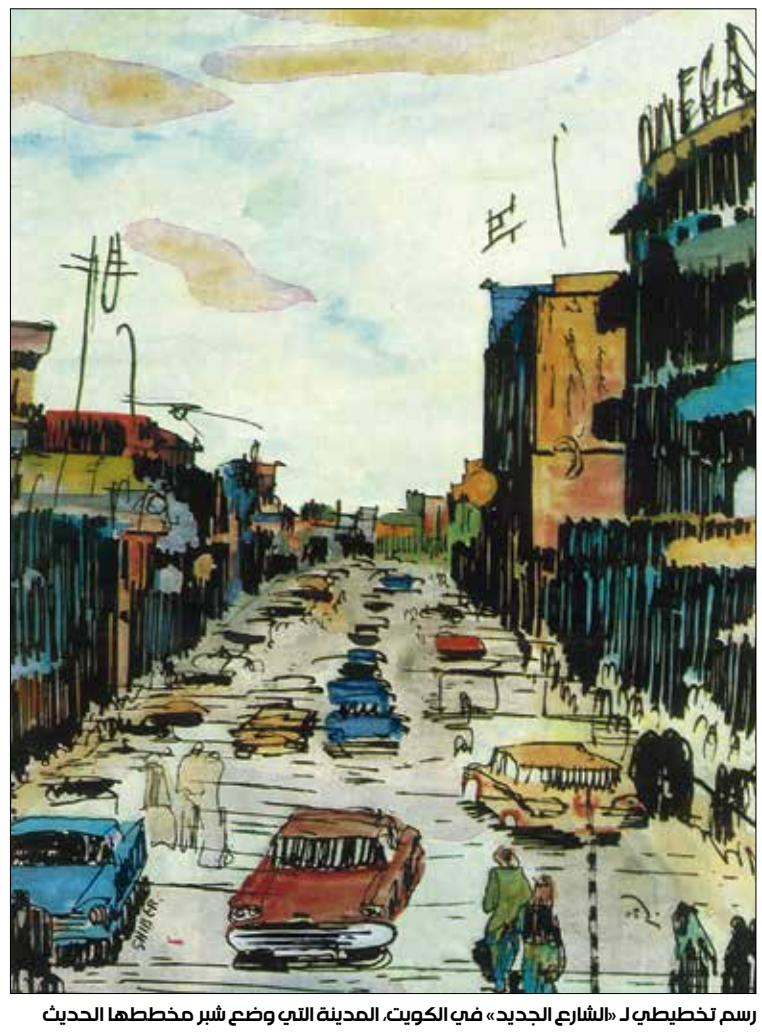

رسم تخطيطي لـ «الشارع الجديد» في الكويت، المدينة التي وضع شبر مخططها الحديث

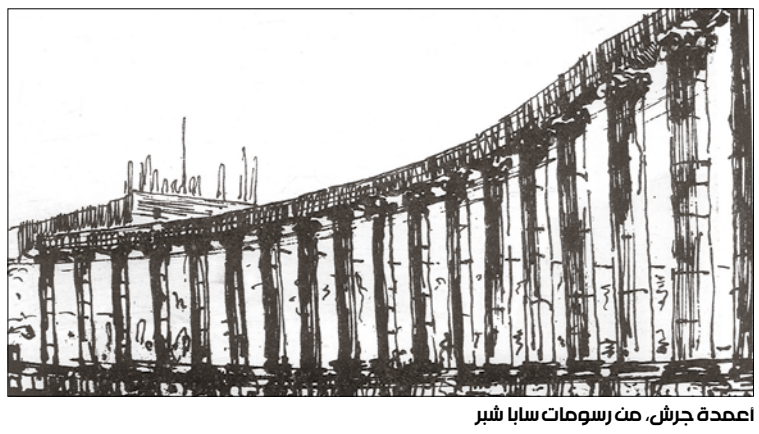

اعمدة جرش، من رسومات سابا شبر

دكتور شبر في مؤتمر معماري في الهند، 1965

نكبة جميلة

وليد الشيخ

كلما جاءت ذكرى النكبة، أتذكر جدتي جميلة. منها عرفت أن العسل واللبن لم يتدفقا من تلال قرية زكريا قبل عام 1948، وأن قن الدجاج ضمّ في أفضل حالاته أربع عشرة دجاجة، وأن كل تلك السنوات الثلاثين التي عاشتها جميلة في زكريا قبل النكبة، لم تكن أفضل أيام حياتها. بيد أن جميلة «انتكبت» تماماً. أُجبرت مع أهلها على ترك قرية زكريا، لتحط رحالهم جنوب مدينة بيت لحم، حيث أنشأت الأمم المتحدة مخيماً للاجئين على قطعة أرض استأجرتها «وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين» (كما صارت تعرف) مدة 99 عاماً. وكان على جميلة وأهلها أن يتدبروا أمورهم في المخيم أسوة بالآخرين. وعليها هي تحديداً أن تقف في الطابور النسائي الطويل لاستلام المؤن (علب سردين، طحين، سكر، رز، زيت). المؤونة كانت تثير حسد أهل قرى أرطاس والخضر، وحوسان ربما. وهي القرى المحيطة بمدينة بيت لحم.

انتكبت جميلة فعلاً.

اختلّ القاموس اليومي الذي كان لسانها قد اعتاده في زكريا، وسقطت منه مفردات وتشبيهات وأسماء، وازدحمت مفردات جديدة على لسانها في المخيم، وصار القاموس الذي تستخدمه يتشكّل وفق التطورات السياسية والاجتماعية والاقتصادية. أصبح تداول كلمة «الكرت» (بطاقة المؤونة) مفردة لا مجال لنسيانها، جرت على ألسنة الناس، ودقق الناس في عدد الأنفار المدرجين على كل كرت، وعلى التوزيع العادل للموارد وعلى الأختام الواضحة ومواعيد التوزيع التي لا تُنسى. فيما سقطت أسماء من قاموسها مثل الدكران، والخابية، والتلم، والمكاثي. ودرجت على لسانها كلمة «ساناتيشن» بتلقائية كما لو أنها قضت طفولتها عند تماثيل الطرف الأغر في لندن إلى أن ضمّ قاموسها الجديد كلمة البقجة. وهي على ما يبدو كلمة مأخوذة عن الفرنسية Bagage، وتشير هذه الكلمة إلى ملابس كان يتبرع بها الأوروبيون من بلاد الشمال الباردة للاجئين. وانتكبت أيضاً حين تنقلت بين سجن الجفر وسجن بيت لحم منذ منتصف الخمسينيات لزيارة الأخ والإبن. فعلى التوالي، ودون أسباب موجبة على ما يبدو، قام إخوة جميلة وأولادها بالانضمام إلى التنظيم الشيوعي. وظلت تسألهم عن وجوه الرجال الثلاثة الملتحين في اللوحة الشهيرة التي كانت معلقة في الغرفة الضيقة قرب الشباك، تحت شعار «الماركسية - اللينينية راية العصر». أنا حفيدها، كنت قلقاً على إسقاط اسم أنجلز، وبذلت جهداً للتعرّف على عالمه، وهذا موضوع آخر، لا يجوز مناقشته عند الحديث عن أمر ضروري كالنكبة. لكن تجدر الإشارة الى أن جدتي واظبت على تسمية ماركس باسم (ماكس) قالت: معلقين صورة ماكس عالحيط كأنه من بقية أهلكم!

وعندما قرر الرب امتحان اللاجئين الفلسطينيين من 4 إلى7 شباط عام 1950، أنزل عليهم ثلجاً هائلاً وغزيراً، بكت جميلة طوال الليل وهي تساعد زوجها في التشبّث بعامود الخيمة كي لا تأخذها الريح أو تسقط عليهم الخيمة. وستعلم تلك الليلة بالذات، أنها وزوجها وجيرانها وأهل قريتها لن يعودوا كما كانوا من قبل. سيتمكن منهم إحساس عميق بالقهر ورغبة صاخبة في أن تطلع الشمس، ولو مرة واحدة ، من أية جهة عدا الشرق. ولتكن القيامة. لكن القيامة تأخرت.

(كاتب فلسطيني/ رام الله)

هيئة تحرير العدد
انطوان شلحت
احمد باشا
شوقي بن حسن
نجوان درويش

غلاف العدد واعماله الفنية
رنا بشارة

للتواصل: pal@alaraby.co.uk